الدكتور
إبراهيم صلاح الهدهد
الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر - القاهرة
ورئيس جامعة الأزهر سابقا
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

أسلوب المدح والذم في الذكر الحكيم

دراسة بلاغية



أسلوب المدح والذم
في الذكر الحكيم
دراسة بلاغية
دكتور إبراهيم صلاح الهدهد
الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة
الأولى لمكتبة وهبة ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
١٧٦ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٨/٢١٨٧١
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
978-977-225-486-6

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأى المؤلف وهو المسئول عنها وحده



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الهدهد ، إبراهيم صلاح .
أسلوب المدح والذم في الذكر الحكيم : دراسة بلاغية
إبراهيم صلاح الهدهد .- ط١ ، القاهرة :
مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٩
١٧٦ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ٦ ٤٨٦ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١ – القرآن ، بلاغية

أ- العنوان

٢٢٥







١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com



مقدمة الطبعة الثانية

اللهم إني أحمدك حمدا يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك ، وأشكرك شكرا يليق بجليل إنعامك ، وأصلي على نبيك ورسولك سيدنا محمد صلاة تليق بكماله .

وبعد

فإن الإبحار بأسلوب في الذكر الحكيم لاستكشاف أسراره لمن أعظم أنماط الدرس البلاغي الذي يكشف عن طاقة الأسلوب وثرائه ، وهذا الأسلوب باب من أبواب البلاغة لم يعط حقه ، فلقد عني البلاغيون بأسلوب الإنشاء الطلبي ، وتتبعوا مواقعه في القرآن وكلام العرب ، وذكروا أغراضه ، وفرّعوا مسائله ، وشققوها ، أما الإنشاء غير الطلبي فلم تكن لهم به عنايةٌ كالتي كانت منهم للإنشاء الطلبي ، ومهمة كل باحث أن يعمد إلى إكمال ما أشار إليه الأسلاف والتوجه إليه بحثا ودرسا واستنطاقا لأسراره ، واستنباطا لأغراضه ، فقد قام أهل العلم بما أطاقوا من واجب الوقت في كل زمان ، وهكذا يتتابع إنبات المسائل من هذه الأمة في كل علم وفن ، نصحا لكلام الله ، ووفاء بحقه .

ولقد نهجت في الكتاب نهج الاستقراء التام فجمعت الأسلوب كله ، محيطا بجميع صوره ، وقد أبصرت أن الأسلوب خاتمة معنى ، ونهاية

حلقة ، وهو يقع دائما تعقيبا على ماسبق ، مما أوجب إحسانا للنظر تدبر السياق الذي جاء فيه ، اجتهادا في تحقيق مقاصد الأسلوب وأغراضه ، كما اجتهدت في الكشف عن تناسب الأسلوب مع السياق الوارد فيه ، كما اجتهدت في بيان مقامات (نعم) وسياقاتها ومقامات (حسن) وسياقاتها ، ومقامات (بئس) وسياقاتها ، ومقامات (ساء) وسياقاتها ، ومقامات (كبر) وسياقاتها ، وقد مهدت لكل ذلك بإيجاز كلام النحاة في الأسلوب ، وإيجاز كلام البلاغيين في أسلوب الإنشاء ، قاصدا بذلك فتح الباب لما لم يدرس من أساليب الإنشاء غير الطلبي في الذكر الحكيم ، والبيان النبوي الشريف والشعر العربي ، والنثر العربي كذلك ، لأننا نؤمن أن من واجبنا فتح آفاق للدرس البلاغي أمام الباحثين وطلاب العلم .

واليقين الذي نؤمن به أن للمفسرين كلاما حول هذا الأسلوب وسواه لانجده عند البلاغيين ، لكن التقاطه يحتاج بصيرة واعية ، لتفرق بين ماهو تفسير وماهو بلاغة ، ثم تنضد أقوالهم لضبط أغراض الأسلوب ومقاصده ، وهذا من جليل العمل ، والله أسأل أن يتقبل هذا العمل ، وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم العرض على رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

المقطم في : ١٦ من صفر ١٤٤٠هـ

الموافق : ٤ من نوفمبر ٢٠١٨م

الدكتور

إبراهيم صلاح الهدهد

عفا الله عنه



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

اللهم إني أحمدك حمد الشاكرين ، وأسألك سؤال الضارعين ألا تجعل عملي إلا إليك ، وأن تصرف وجهي عن الدنيا إليك ، اللهم إني أطمع في رضاك ، وأخشى سخطك ، وأرغب في جنتك ، وأخشى عذابك ، اللهم اكتب لي عندك بما حاولته في فقه بلاغة كتابك ـ أجرًا ، ولا تحمل عليَّ فيما قصرت فيه إصراً ، وادفع عني شبهة الرياء ، وقني شر التفاخر وشر نفسي ، واجعل عملي هذا نوراً في قبري ، ومغفرة لي ولوالدي الأميين ، ولأهلي وولدي ولمشايخي وللمؤمنين ، وصل يا رب على خير خلقك سيدنا محمد صلاة تبلغنا شفاعته ، واكتب لنا يا رب محبته ، واجعلنا يا رب ممن تأثر خطاه ، وتقفى مسعاه

وبعد .

فإن بلاغة القدماء اليوم تداعت عليها الأقلام ، وتبارت عليها السهام ، فمن داع إلى وأدها ، ومن هادم لصروحها ، ومن قائل لا تلائم عصرها أولئك العابدون لأذيال الغرب ، القائمون في محاريبهم ، المتبتلون بأذكارهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكثيراً ما دعاني هذا الذي ذكرته أن أزور كلامًا في غثاء سيلهم مما يسمى بالأسلوبية ، والبنيوية ، والتفكيكية ، وكلها مناهج نقدية يأكل

بعضها بعضًا ، كلما جاءت أمة لعنت أختها ، وهدمت صـرحها ، وبـورت سعيها ، وهذا شأن كل غثاء ، لأن الزبد يـذهب جفـاء ، ومـا ينفـع النـاس يمكث في الأرض ، وهذا حق كله ، وواقع كله .

البنيويون يُهَاجَمُون من التفكيكيين ، وكل حزب بما لديهم فرحون فهي أماثل تلائم عصراً ما ثم تقبر وتزول ، ونحـن في بـلاد المسـلمين نحـاول إحياء مواتهم ، وبث الحياة في رفاة ما خلف الغربيون ، لأن أمة المسـلمين ابتليت في زماننا بقوم هم أشد عـداوة ، وأقـوى سـلطانًا في محاربـة تـراث المسلمين من الغربيين المستشرقين ، زرع المستشرقون في كل بلـد عربـي طائفة من المستغربين وهم أعضاء شائهة في جسـد الأمـة ، لا تكـف عـن محاربة أصول الجسد هذا ، ولا تنام عن مدافعته لتمسخ وجه تراث الأمة ، وتنشئ جيلا من المسلمين لا يعرف عن إرث أمته إلا أنه إرث متخلـف ، إرث يرفل في ذيل القديم ، إرث لا عمل له إلا نبش قبور المجلدات الـتي لا نفع فيها ، وهذا وربك واقع مـؤلم وشـر مسـتطير يخـرب عقـل شـباب الأمة ، ولهم منابر يرتقونها ، ومناصب يقودون فيها يحولون بما مكنوا بين شباب الأمة وتراث أسلافها ، وأمجاد آبائها .

وللمسلمين منـاهـج فـي الفـكـر ، ونتائج تفكير تبهـر عقـول الغـرب ، ولا يزالون من عقول أئمتنا إلى يوم الناس هذا في أمر عجيب ، من حيث دقة البحث ، وصـرامة المـنهج ، وعمـق الاسـتنباط ، وتأسـيس المعـارف ، وآداب العلم ، من أمانة ، واحترام لمذاهب الغير في الاستنباط ، يرى ذلـك ويبصره كل مـن راقـب وثـب عقـول أئمتنـا في شـتى المعـارف ، ولاحـظ تفكيرهم ، وتابع مسيرتهم .

ولو قرأت ما يحاول المستغربون إحلاله محل تراث المسلمين لما انقضى منك عجب تراهم مثلاً يقولون (الانحراف النصي) أو (انكسار النص) أو غير ذلك من مصطلحات تبهرك ، حتى يسمعها الدارسون في القديم ، يعلمون أن الزمان تجاوزهم وتخال ـ بسماع ذلك وقتها ـ أنك تعيش في خيمة في الصحراء ، وأنهم يسكنون القصور ، والأبنية المشيدة ، وعندما يدفعك حب الارتقاء كما ارتقوا إلى قراءة ما سمعت ، تحس وقتها أنك تقبض على هواء ، وترقم على ماء لأن ما سموه بالانحراف النصي منه ما يسمى عند البلاغيين القدماء جدًّا كما يسمونهم ، أو الأموات كما يعلمون تلاميذهم ، يسمى عند أئمتنا بالالتفات ، وبخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وغير ذلك مما يستلفت انتباه القارئ ويجذبه جذبًا ليلقي إليه معنى ما ، فيسمون بذلك سادة الزمان ، وقواد عجلته وأحياء العصر ، يسمونه بالانحراف ، لأنهم يعتقدون أن الكاتب انحرف بالنص هذه الانحرافة ، وانكسر هذه الانكسارة فكأن لها أثر بالغ على القارئ والناقد والمحلل!!

قل لي بربك ما هذه المصطلحات ، أما الانحراف فتحس من سماعه أنك في خمارة أو بين شمامين ، أو في سجن للمنحرفين ، ما هذا يا خلق الله؟! وأما الانكسار فتحس من سماعه أنك في مستشفى للعظام ، أو أنك في قسم الهندسة المعمارية ، أو أن من كتبوا ذلك يعملون في المقاولات !!

وكنت على أن أزور كلامًا في « مناهج النقد عند المستغربين في مهب الريح » غير أنني وجدت عجلة الزمان تطحنهم فتموت البنائية ، وتحيا التفككية ثم تموت ، وتتناقص المناهج ، وهلاكها أسرع من بقائها ، وذلك شأن غثاء السيل ، فتترك ذلك يأكل بعضًا ، ونحاول نحن أن نعمل كما

يعملون ، وأن نناضل من أجل إظهار الحق ، ولو نصف ما يجاهدون هم من أجل باطلهم .

وما ذكرته نفثة مصدور مما يرى من اللعب بعقول الأمة ، آثرت تسجيله في التقديم لهذا البحث ، إشارة لما ينبغي أن يكون عليه الباحثون ، من الدأب والعمل ، والجد والاجتهاد .

هذا ، ولإلفى بمحاولات في فقه بلاغة الذكر الحكيم ، أيقنت يقينا لا يخشه شيء أن ما أوجزه البلاغيون ، وما أشاروا إليه دون كشف وبيان ، شققه المفسرون ، ووسعوا آفاقه وفتحوا أبوابه ، وهذا الأسلوب موضوع البحث من الموضوعات التي ألمح إليها البلاغيون إلماحة خاطفة ، وهم يذكرون الإنشاء غير الطلبي ، حيق قالوا : ومن الإنشاء غير الطلبي القسم والمدح والذم .. إلى آخره ، دون أن يتناولوا شواهد لذلك ، أو يذكروا أغراضًا ، وما قصروا ، ولكن عملوا ما وسعهم الوقت ، وما أسعف به الجهد ، وبقي على علماء كل جيل متابعة العمل ، وإنبات المسائل .

أما المفسرون فقد ذكروا في هذا الباب كلامًا ، وأشاروا إلى لطائف ونكات تكتب بماء التبر لا بالحبر ، وقد حاولت في إبصار تلك اللطائف ، أن أبصر لطائف أخر فيما لم يشيروا إليه ، فوجدت لهذا الأسلوب مقاصد عامة ، ومقاصد خاصة ، ولطائف لا تتناهى شأن البلاغة القرآنية في كل لفظ ، ودأبها في كل أسلوب .

وقد مضيت في تقسيم مواضع هذا الأسلوب في الذكر الحكيم على الجمع بين طريقتين ، ناظرًا إلى طبيعة الأسلوب ، وطبيعة السياق ، أما طبيعة الأسلوب فهي تحتم على أن يكون في فصلين **الفصل الأول** في : أسلوب المدح ، **الفصل الثاني** في : أسلوب الذم ، أما طبيعة السياق ، فكل

مجموعة من الآيات تنتظمها سياقات متقاربة جمعتها في خيط متتابع ، من بعد التمهيد لهذين الفصلين بما يكشف عن دلالة هذا الأسلوب لغة ونحواً وبلاغة ، وما له بموضوع البحث اعتلاق من قريب أو من بعيد ، محاولاً في كل ذلك الاتكاء على مقالات الأئمة ، والاحتياط الشديد في فهم كلامهم ، وفقه النص الحكيم ، وما وسعني الجهد .

وقد اعتمدت المنهج التحليلي طريقًا تمضي الدراسة عليه ، إذ هو المنهج الملائم لمثل هذا البحث ، والله من وراء القصد ، وهو وحده يرزق الفهم ، ويعفو ويصفح .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

المقطم في : ١٤١٨هـ

الموافق : ١٩٩٨م

الدكتور

إبراهيم صلاح الهدهد

عفا الله عنه

تمهيد

• نعم وبئس عند اللغويين

اتفق اللغويون على أمور في نعم وبئس :

أولها : أن (نعم) كلمة مدح ، و(بئس) كلمة ذم .

ثانيها : أنهما فعلان ماضيان لا يتصرفان ، وقد عللوا عدم تصرفهما بأنهما منقولان من (نعم) بفتح النون وكسر العين ، و(بئس) بفتح الباء وكسر الهمزة . وأن نقلهما جعلهما يشبهان الحروف في عدم التصرف .

ثالثها : أنهما لا يعملان في اسم علم ، وإنما يعملان في اسم منكور دال على الجنس ، وعللوا ذلك بأن (نعم) مستوفية لجميع المدح ، و(بئس) مستوفية لجميع الذم ، فقولنا : نعم زيد ، معناه : أنه لو فضل الرجال رجلا رجلا فضلهم زيد[١] .

وقد نقل البقاعي عن أبي طالب العبدي في شرح الإيضاح : أن نعم وبئس للمبالغة ، فالمراد بهما التناهي في المدح والذم ، ولاختصاصهما بهذا المعنى منعتا التصرف ، واقتصر بهما على المعنى ؛ لأن المدح والذم إنما يكونان متعلقين بما ثبت واستقر ، لا يمدح الإنسان بما لم يقع منه[٢] .

---

(١) انظر لسان العرب ، الصحاح ، ومختار الصحاح ، والمصباح المنير ، مقاييس اللغة ، والوسيط ، والمفردات للراغب الأصفهاني مادتي (بئس) و(نعم) .
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٥٢٦/١ .

وهذا يعني أن لنعم وبئس تميـزًا خاصًّـا مـن حيـث الدلالـة ، وأن هـذه الأمور اللغوية هي التي تجعل التعبير بهما في مقامي المـدح والـذم أقـوى دلالة وأثرى تعبيرًا ، بل هما أهــدى سبيلاً عند إرادة المبالغة في المدح أو الذم من التعبير بالفعلين (أمدح) و(أذم) بل إن دلالتهمـا تلـك المتسـعة أو حيث أن يكون فاعلهما على طريقتهما في العموم والشيوع .

● نعم وبئس عند النحاة

النحاة على فريقين من كون (نعم وبئس) فعلين أو اسمين .

البصريون : على أنهما فعلان ماضيان لا يتصرفان وأدلتهم على ذلك :

١- أن الضمير يتصل بهما على حد اتصاله بالأفعال ، فإنهم قالوا : نعما رجلين ، ونعموا رجالا ، كما قالوا : قاما وقاموا .

٢- أن تاء التأنيث الساكنة التي لم يقلبها أحد من العرب هاء في الوقف تتصل بهما كما تتصل بالأفعال نحو : نعمت المرأة .

٣- أنهما مبنيان على الفتح كالأفعال الماضية ، ولو كانا اسمين لما بنيا على الفتح من غير علة .

الكوفيون : على أنهما اسمان ولهم على رأيهم أدلة :

١- دخول حرف الجر عليهما ، وهو مما يختص بالأسمـاء ، واسـتدلوا لذلك بما جاء في كلام العـرب وأشـعارها مـن مثـل قـولهم : نعـم السير على بئس العير .

٢- أنها وردت مناداة ، فالعرب تقول: يا نعم المولى ويا نعـم النصـير ، والنداء من خصائص الأسماء .



٣- أنه لا يحسن اقتراف الزمان بهما كسائر الأفعال ، فلا يحسن أن تقول : نعم الرجل أمس .

٤- أنهما لا يتصرفان .

٥- أن نعم قد استعملت في كلام العرب على وزن ليس من أوزان الأفعال : (نعم الرجل زيد) .

رد البصريين أدلة الكوفيين .

أولاً : أن حرف الجر إنما دخل عليهما على تقدير الحكاية ، وحروف الجر تدخل على تقدير الحكاية ، وقد جاء حرف الجر داخلاً على ما لا خلاف في أنه فعل ، ولم يقل أحد حينئذ بأنه اسم كما في قول الشاعر :

والله ما ليلي بنام صاحبه

فالتقدير : والله ما ليلي بليل نام صاحبه .

ثانيًا : أن المقصود بالنداء محذوف للعلم به ، والتقدير فيه : يا الله نعم المولى .

ثالثًا : أنهما إنما امتنعتا من اقتران الزمان (الماضي والمستقبل) بهما وسلبتا التصرف ؛ لأن (نعم) موضوعة لغاية المدح ، و(بئس) موضوعة لغاية الذم ، فجعل دلالتهما على الزمان مقصورة على الآن ؛ لأنك إنما تمدح وتذم بما هو موجود في الممدوح والمذموم ، لا بما كان فزال ، ولا بما سيكون في المستقبل .

رابعًا : أما استعمال نعم على نعيم فإنها رواية شاذة ، ولئن صحت فليس فيها حجة ؛ لأن هذه الياء نشأت عن إشباع الكسرة لأن الأصل في نِعْم ـ بكسر النون وتسكين العين نَعِم بفتح النون وكسر العين ، وأشبعت الكسرة فنشأت الياء ، وهذا كثير في كلامهم .

والبصريون لم يردوا على استدلال الكوفيين على اسمية نعم وبئس بالجمود ، لأنه أضعف من أن يرد عليه ، وذلك لكثرة الأفعال الجامدة في اللغة من مثل ليس وعسى وغير ذلك ، ولم يقل أحد بأنها أسماء .

ولابن عصفور طريقة أخرى في تحرير الخلاف ، فقد ذكر أنه لم يختلف أحد من البصريين والكوفيين على أن (نعم وبئس) فعلان ، وإنما الخلاف بينهما في الفعلين بعد إسنادهما إلى الفاعل فذهب البصريون إلى أنهما فعلان كما كانا قبل الإسناد .

وذهب الكسائي إلى أن قولك : نعم الرجل ، ومثله قولك : بئس الرجل اسمان محكيان صارا اسمًا واحدًا ، بمنزلة قولك : تأبط شرًّا فقولك : بئس الرجل قد صار اسم جنس واحد بمنزلة قولك : المذموم .

وذهب الفراء إلى أن الأصل في قولك : نعم الرجل زيد رجل نعم الرجل زيد ، وحذف الموصوف ، وهو رجل ، وأقيمت الصفة مقامه ، وهي جلمة نعم الرجل ، فأخذت الصفة مقام الموصوف ، وأعرب الإعراب الذي كان للموصوف .

وقد رُد مذهبا الكسائي والفراء بأنه لو صح ما ذهبا إليه من التراكيب لجاز أن يقع هذا المركب موقع المبتدأ ، وأن يخبر عنه بما تشاء من الأخبار ، فتقول : نعم الرجل قائم ، ولكان يصح أن يقع اسمًا للنواسخ ،

كما هو شأن كل مبتدأ ، لكنا وجدناهم يلتزمون صورة واحدة من الكلام ، فيقولون : نعم الرجل زيد ، ويقولون : بئس الرجل عمرو ، فدل ذلك على أنهم لم يجعلوا هذا المركب اسمًا واحدًا هو مبتدأ[1] .

نخلص من هذا إلى أن أصح المذاهب أن (نعم وبئس) فعلان ، وطريقة البصريين هي الطريقة المشهورة .

---

(١) انظر أسرار العربية لابن الأنباري ٣٦-١٠٣ والإنصاف ١/٩٧-١٢٦ ، أوضح المسالك ٣/٢٧٠-٢٧٢ ، عدة السالك ٣/٢٧٠ ، ٢٧١ .

أركان هذا الأسلوب

أسلوب المدح والذم له طريقته التي يمتاز بها من غيره على النحو التالي :

١- فعل : وهم نعم أو بئس ، وهما فعلان جامدان غير متصرفين مجردين من الزمان ، وهي خصيصة لهذا الأسلوب ، إذ لا توجد في العربية جملة فعلية مجردة من الزمان .

٢- فاعل : وللنحاة في فاعل نعم وبئس شروط تتناسب ودلالتهما وما سيقتا له في كلام العرب . ففاعلهما يكون أحد الأنواع التالية :

أ- المعرف بأل الجنسية ، وعللوا لذلك بأن نعم وضعت للمدح العام وبئس للذم العام ، خص فاعلهما باللفظ العام ، وليدل ذلك على أن الممدوح والمذموم مستحق للمدح والذم في ذلك الجنس ، فالمدح العام يشمل فضائل الجنس كلها مبالغة ، وكذلك الذم العام .

ب ـ المضاف إلى المعرف بأل .

جـ ـ المضاف إلى المضاف إلى المعرف بأل .

د ـ الضمير المستتر وجوبًا بشرط أن يكون ملتزمًا الإفراد والتذكير ، وعائدًا على تمييز بعده ، يفسر ما في هذا الضمير من الغموض والإبهام ، وعود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة من خصوصيات هذا الأسلوب ، كذلك لابد من مطابقة هذا الضمير للمخصوص بالمدح أو الذم وهذا يعني أنك تسند الفعل الواحد إلى الفاعل مرتين ، مرة وهو فاعل ومرة أخرى ، وهو مخصوص ، كذلك اشترطوا أن يكون التمييز صالحًا لقبول أل

المعرفة ، فلا يصلح أن يكون من الكلمات المتوغلة غالبًا في الإبهام ، مثل كلمة غير ، ومثل ، وشبه .

هـ ـ كلمة (ما) أو (من) نحو: نعم ما يقول الحكيم المجرب ، وهذا على غير طريقة من يعرب (ما) تمييزًا والفاعل ضمير مستتر تفسره (ما) .

و ـ الذي (الاسم الموصول) .

ز ـ النكرة المضافة ، أو غير المضافة ، والنوعان الأخيران وهما : الذي والنكرة أقل الأنواع استعمالاً وسموا بلاغيًّا مع جوازهما .

٣- المخصوص بالمدح أو الذم : وعلامته أن يصلح وقوعه مبتدأ خبره الجملة الفعلية التي قبله مع استقامة المعنى ، ويشترط في هذا المخصوص أن يكون معرفة أو نكرة مختصة بوصف ، أو إضافة أو غيرهما .

من وسائل التخصيص ، وهو أن يكون أخص من الفاعل ، لا مساويًا له ولا أعم منه ، وأن يكون مطابقًا له في المعنى ، فيكون مثله في مدلوله تذكيرًا ، وتأنيثًا ، وإفرادًا ، وتثنية ، وجمعًا ، وأن يكون متأخرًا عن الفاعل ، فلا يتوسط بينه وبين فعله ، ويجوز تقدمه على الفعل والفاعل معا ، كما يجب تأخره عن التمييز إذا كان الفاعل ضميرًا مستترًا له تمييز ، أما إذا كان الفاعل اسمًا ظاهرًا فيجوز تقديم المخصوص على التمييز وتأخيره ، وإذا كان المخصوص مؤنثًا جاز تذكير الفعل وتأنيثه ، وإن كان الفعل مذكرًا فالتذكير في هذه الحالة أحسن ليطابق الفاعل .

أحكام المخصوص :

أولاً : يجوز حذفه إن تقدم على جملته لفظ يدل عليه بعد حذفه ، ويغني عن ذكره متأخرًا ، ويمنع اللبس والخفاء في المعنى ، ويسمى هذا اللفظ (المشعر بالمخصوص) سواء أكان صالحًا لأن يكون هو

المخصوص ، أم غير صالح .

ثانيًا : في المخصوص إعرابات مشهورات . **أحدها :** أن يكون مبتدأ مؤخر ، والجملة الفعلية التي قبله خبر عنها .

ثانيها : أن يكون خبرًا لمبتدأ محذوف وجوبًا .

ثالثها : أن يكون مبتدأ خبره محذوف وجوبًا تقديره : الممدوح أو المذموم .

هذه هي الأوجه الثلاثة المشهورة ، وهناك وجه رابع لا حذف فيه ولا تقدير ، وهو إعرابه بدلاً من الفاعل ، وهو مهجور عند العلماء ، ويرى بعض المحدثين ألا يقدر المخصوص عند حذفه وحجته في ذلك أنه تكلف وتصنع[1] دون أن يشرح ولا يفضل .

وقد رجح العلماء الرأي القائل بإعرابه مبتدأ مؤخرًا ، وهو مذهب سيبويه لأنه يحذف في الغالب ، وكثرة حذفه مما يستدل به لمذهبه . إما على إعرابه مبتدأ لخبر محذوف ، أو العكس ، فيترتب على هذا الإعراب حذف الجملة بأسرها ، وحذف المفرد أسهل من حذف الجملة ، ومذهب سيبويه هو الذي تسير عليه هذه الدراسة[2] . لأنه أشبه بمسافات الأسلوب وجريانه في تأكيد المدح أو الذم ، وكذلك أيضًا لسهولته ويسره .



(١) من أساليب القرآن دكتور إبراهيم السامرائي ص ٩٦ .

(٢) انظر أسرار العربية لابن الأنباري ص ١٠٤ ، الإنصاف ١/١٢٠-١٢٦ ، أوضح المسالك ٣/٢٨٠، دراسات لأسلوب القرآن دكتور عضيمة القسم الثالث ١٠/٣٥.

الأفعال الجارية مجرى (نعم وبئس)

القاعدة عند جمهور النحاة أن كل فعل ثلاثي صالح للتعجب منه يجوز استعماله على (فعل) بضم العين ، إما بالأصالة كـ (ظرف ، وشرف) أو بالتحويل كـ (ضرب) و(فهم) ، ثم يجري حينئذ مجرى (نعم وبئس) في إفادة المدح والذم ، وفي حكم الفاعل ، وحكم المخصوص ، تقول في المدح : فهم الرجل زيدُ ، وفي الذم : خبث الرجل عمرو ، ومن أمثلته « ساء » فإنه في الأصل سوأ بالفتح ، فحول إلى فعل بالضم ، فصار قاصرًا ، ثم ضمن معنى بئس ، فصار جامدًا قاصرًا ، محكومًا له ولفاعله بما لنعم وبئس، ولك في فاعل فعل المذكور أن تأتي به اسمًا ظاهرًا مجردًا من أل، وأن تجره بالياء وأن تأتي به ضميرًا مطابقًا .

وقد اشترطوا في (فعل) أن يتضمن معنى التعجب ، وذلك لكونه بمعنى (أفعل به) نحن ظرف ، أي : أظرف به ، وقد ذكروا أنه يكثر استغناء فاعله عن الألف واللام ، كما أنه يضمر فاعل الفعل المذكور كثيرًا على وفق ما قبله ، ولم يجز ذلك في (نعم وبئس) وذلك لعدم عراقته في المدح والذم ، وكونه كفعل التعجب معنى[1] .

والظاهر أن السياق ذو أثر بالغ في تحديد دلالة الأفعال التي على وزن (فَعُل) محولة كانت أم أصلية ، لأنها بهذه الحالة يمكن أن تعامل معاملة

---

(١) التسهيل لابن مالك ص ١٢٨ ، شرح الكافية ٢/٢٩٦ ، أوضح المسالك ٣/٢٨٠، ٢٨١، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/٣٦٦ وما بعدها ، النحو الوافي ٣/٣٨٧ ، ٣٨٨ .

الأفعال المتصرفة ، ويمكن أن تفيد معنى التعجب ، ويمكن أن تجري مجرى (نعم وبئس) ، وعليه فقد دخلت السياقات أفعالاً محولة في موضوع بحثنا ، وأخرجت أفعالاً أخرى .

الفرق بين دلالة (نعم وبئس) وما جرى مجراهما :

ذكر بعض أهل العلم كلامًا سديدًا في التفريق بين (نعم وبئس) وما جرى مجراهما ، وخلاصة قوله : أن الفعل الثلاثي في صيغته الجديدة الناشئة من التغيير يؤدي ثلاثة أمور مجتمعة .

أولاً : المعنى اللغوي الخاص بالفعل .

ثانيًا : يزاد على المعنى الخاص معنى المدح والذم حسب الدلالة الأصلية .

ثالثًا : إفادة التعجب في حالتي المدح والذم ، والمدح والذم هنا خاصان لأنهما يقتصران على المعنى اللغوي للفعل ، وهذا المعنى معين محدود ولهذا يكون المدح به أو الذم به خاصًّا مع إفادة التعجب في كل حالة فلا إهمال لمعنى الخاص الأساسي للفعل .

إذن لا تعميم ولا شمول ولا خلو من التعجب في الأفعال الجارية مجرى (نعم وبئس) فالأسلوب هنا باشتماله على الأمور الثلاثة السالفة مختلف عنه مع (نعم وبئس) لأن معناهما المدح والذم العامين الشاملين الخاليين من إفادة التعجب ، وإنما يقوم الفعل الثلاثي بتأدية معناها الخاص مع تلك الزيادة في الدلالة[1] .

---

(١) النحو الوافي ٣/٣٨٤ ، ٣٨٥ .

وهو رأي جيد مؤسس على الدلالة اللغوية لكل فعل ، والتفريق بين ما هو أصل في الأسلوب ، وما هو فرع أو محمول ، وهذا يعني أن المقامات هي التي تقتضي أساليب معينة ، فمقام استخدام (ساء) غير مقام استخدام (بئس) ، ومقام استخدام (كبر) يغاير مقام استخدام (ضعف) وهكذا يبحث عن التناسب بين الأساليب والمقامات ، وقرائن الحال والسياق .

وقد أبعد أحد الباحثين إذ ذكر أن دلالة الذم في (ساء) إنما جاءت من معنى الفعل اللغوي ، واستدل لذلك بأن مقابله (طاب) وهو استدلال غير قوي لأن (طاب) أيضًا تستخدم بمعنى (نعم) وتجري مجراها في بعض الأساليب وهو يرى أن قول النحاة في أن (ساء) دلت على الذم من كونها على (فعل) يرى أنه تكلف ، ومع أنه من كبار النحويين إلا أننا نلحظ رفضه لكثير من مقالاتهم دون حجج قوية أحيانًا ، وبدون حجة أصلاً أحيانًا أخرى .

من ذلك أنه يقول عن قوله تعالى : ﴿ **حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ (الفرقان:٧٦) بعد أن السياق يرشد لدلالة حسن على المدح ، وذكر أن هذا الموقع جعل النحاة يجرونها قاعدة ثابتة[1] ، والواقع يخالف ما قاله ، وبمطالعة كلام المفسرين الذين يولون الجانب النحوي اهتمامًا خاصًّا ، أبصرنا أنهم يعتمدون السياق أصلاً في تحديد دلالة الأفعال المحولة ، وآية ذلك أنهم ذكروا في الآيات التي ورد فيها الفعل (كبر) أن بعضها دال على الذم وجار مجرى بئس ، والبعض الآخر ليس كذلك .

---

(١) من أساليب القرآن . دكتور إبراهيم السامرائي ص ٩٧ .

وشيء آخر أن تحديد الدلالة للألفاظ قائم على إبصار الكلمات في سياقات كلام العرب وآيات الله والحكمة ، فكأن السياق يضفي نورًا على دلالة الكلمة الواردة فيه ، ومن أظهر ذلك ألفاظ الأضداد ، فما الذي دل على أن المراد بالظرف (فوقها) (تحتها) في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا** ﴾ (البقرة:٢٦) قال العلماء المعنى ما تحتها وما دلهم على هذا المعنى إلا صحيحة السياق وجريانه سواء أكان سياق اللفظة في السورة ، أو في الكتاب العزيز كله ، والكلمة التي لا تتأثر بسياقها ولا تشع بنوره كلمة شائهة غريبة ، فما ذكره الشيخ الباحث إذن ليس بجديد .

خلو أفعال المدح والذم من الزمان ودلالته :

أسلوب المدح والذم من المعاني التي جرت فيها العربية على أن تؤدى بالفعل في حيز الجملة الفعلية ، على أن يكون الفعل حدثًا مفرغًا من دلالة الزمان ، على نحو ما كان في سائر الأساليب التي أفادت معاني خاصة كالدعاء والرجاء والتمني وغير ذلك[(١)] . فتفريغها من دلالة الزمان نقلها إلى وادي الإنشاء . بل وجعلها من الإنشاء غير الطلبي كما ذكر بعض أهل العلم ، فقد ذكر الدكتور عباس حسن أن (نعم وبئس) يعرب كل منهما فعلاً ماضيًا متجردًا دلالته الزمنية ومنسلخا عنها بعد أن تكونت منه ومن فاعله جملة إنشائية غير طلبية ، يعقد منها إنشاء المدح العام ، أو الذم العام من غير إرادة زمن ماض أو غير ماض ، فكلاهما انتقل إلى نوع خاص من الإنشاء المحض غير الطلبي لا دلالة فيه على زمن مطلقا[(٢)].

---

(١) من أساليب القرآن ص ٩٣ .

(٢) النحو الوافي ٣/٣٦٩ .

وللدكتور تمام حسان طريقة أخرى في تفسير دلالة خلوهما من الزمان حيث يقول : إن هذين اللفظين ليس معناهما الفعل الماضي كما زعم القائلون بذلك ، وإنما معناهما الإفصاح عن تأثر وانفعال ، دعا إلى المدح أو الذم ، بل إن ابن جني في اللمع يقول : إن معناهما المبالغة في المدح والذم ، وتعبيره بالمبالغة يتجه اتجاه تعبيري بالإفصاح ، وفي كلا التعبيرين إشارة إلى ما هو أكثر من مجرد المدح والذم»[1] ويقصد الدكتور تمام حسان بالإفصاح الإنشاء غير الطلبي ، فهو يقسم الإنشاء قسمين إنشاء طلبيًّا ، وإنشاء إفصاحيًّا ، ويجعل الإفصاح في مقابل الطلب كما هو واضح في كتابيه اللغة العربية معناها ومبناها ، والبيان في روائع القرآن .

وخلو جملتي المدح والذم من دلالة الزمان ، مع أن صورتهما صورة الحدث يجعل لهذا الأسلوب تميزًا خاصًّا بين أساليب العربية .

(١) اللغة العربية معناها ومبناها دكتور تمام حسان ص ١١٥ .

أسلوب المدح والذم عند البلاغيين

الأساليب الإنشائية :

الأساليب الإنشائية تمتاز على الأساليب الخبرية بأنها ليست تلقينية إذ هي تثير الانفعال ، وتحرك المشاعر ، وتهيج الخاطر ، لذا أكثر الشعراء والعرب من استخدامها في أشعارهم وخطبهم ومقالاتهم ، والبلاغيون يقسمون الإنشاء قسمين إنشاء طلبيًّا ، وإنشاء غير طلبي ، أما القسم الأول فقد توافرت الكتابة منه ، وأولاه البلاغيون قديمًا وحديثًا كبير عناية ، على العكس من القسم الثاني ، وهو مما لا يتفق ومواقعه المتقنة والفاعلة في كلام العرب ، والكتاب العزيز والحكمة الشريفة .

وكان من تشريف الله لي أن وفقني إلى كتاب بحث في الترجي[1] في الذكر الحكيم ، وقد وجدت الترجي واقعًا في تسعة وخمسين ومائة موضع من الكتاب العزيز منها ما جرى مجرى الحقيقة ، ومنها ما جرى مجرى المجاز ، مما عجبني من تعليل البلاغيين عدم دراستهم الإنشاء غير الطلبي .

الإنشاء غير الطلبي :

لم يذكره السكاكي ولا ابن مالك ولا العلوي[2] ، إذ يعنونون لباب

---

(١) الترجي في آي من الذكر الحكيم ، دكتور إبراهيم صلاح الهدهد ، بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٧م .

(٢) انظر المفتاح ص ٣٠٢ ، والمصباح لابن مالك ص٨٣ ، الطراز للعلوي ٣/٢٨٠، والتبيان للطيبي ص ١٦٤ .

الإنشاء بقانون الطلب ، أو أحوال الطلب ، وذكر الخطيب المصطلح ولم يذكر أنواعه[1] ، نعم ذكرها الشراح ، واتسع قولهم فيما يدخل في الإنشاء منها وما لا يدخل ، وقد تتابعوا على هذه المقالة في التعليل لقلة عنايتهم بهذا الباب « فالإنشاء إن لم يكن طلبًا كأفعال المقاربة ، وأفعال المدح والذم ، وصيغ العقود ، والقسم ، ورُبَّ ، ونحو ذلك فلا يبحث عنها لقلة المباحث البيانية الإنشائية المتعلقة بها ، ولأن أكثرها في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء »[2] .

وقد ذكروا أنها أساليب إنشائية بمعناها المصدري ، أي بمعنى الإلقاء ، قالوا : وإنما احتيج لذلك ؛ لأن الإلقاء هو الذي يصحح جعله قسمًا من الإنشاء ، بمعنى إلقاء الكلام الإنشائية[3] .

وقد تابع القدماء كثير من المحدثين في عدم الالتفات إلى دراسة هذا الباب[4] وقد أشار بعض أهل[5] العلم إلى أن أساليب الإنشاء غير الطلبي فيها مواقع متقنة وفاعلة في النفس أقوى الفعل ، غير أنه لم يتناول أيًّا منها .

---

(١) تلخيص المفتاح ص ١٤٧ ، الإيضاح ٣٢/٢ .

(٢) مختصر السعد ص ١٤٧ ، المطول ص ٢٢٤ ، الأطول للعصام ٢٣٢/١ ، خلاصة المعاني ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، شروح التخليص ٢٣٥/٢ وما بعدها .

(٣) الدسوقي على مختصر السعد ٢٣٦/٢ ، حاشية عبد الحكيم على المطول ٢٣٩/٣ ، فيض الفتاح للخطيب الشربيني ٢٣٩/٣ .

(٤) علوم البلاغة للمراغي ص ٦٧ ، أساليب بلاغية دكتور مطلوب ص ١٠٧ ، علم المعاني دكتور عتيق ص ٧٤ من بلاغة النظم العربي ٦٩/٢ وما بعدها ، معاني التراكيب ١٢٣/٢ وما بعدها ، المعاني في ضوء أساليب القرآن ص ١٤٨، ١٤٩، جواهر البلاغة ص٦٢، لطائف المعاني ص٥٥ البلاغة فنونها وأفنانها ص١٤٨ .

(٥) دلالات التراكيب ص ١٩٢ .

وقد فرق بعضهم بين الإنشاء الطلبي وغير الطلبي بأن الإنشاء الطلبي يسبق التلفظ به الامتثال له ، فقولي لابني : ذاكر ، منفصل زمانًا عن تنفيذه لهذا الأمر ، فالأمر الآن ، والمذاكرة في الزمن الذي يلي ذلك قريبًا أو بعيدًا ، أما الإنشاء غير الطلبي فيتحقق مدلوله بمجرد النطق به ، فإذا قلت : بعت يتحقق البيع بلا فارق زمني بين التلفظ ووقوع البيع[١] .

هذا وكثرة ورود الأساليب الإنشائية غير الطلبية في كتاب الله ، والسنة الشريفة وكلام العرب يجعل الطاقات البلاغية تتوجه إلى البحث فيها ، لاكتشاف طاقاتها التعبيرية ، وخصائصها البلاغية ، فالترجي في كتاب الله بالكثرة التي ذكرتها قبل ذلك ، وأسلوب المدح والذم موضوع دراستنا ، وقع في خمسة وثمانين موضعًا ، وأقسام القرآن كثيرة ، والأقسام في البيان النبوي فوق الألف ، وكذلك الترجي ، وقل مثل ذلك في كلام العرب ، فالأسلوب حين تتكاثر استعمالاته ، وبخاصة في أشرف بيان وأعلاه ، إنما يدل ذلك على سموه ، وعلو بلاغته . ووفرة إيحاءاته .

لعلك الآن معي في رفض مقالة من يرى إدخال باب الإنشاء في ميدان الدراسات النحوية[٢] بل أنت إلى الرفض أسرع لقول من يرى أن الأبر بعلم المعاني أن يكون في الدراسات النحوية[٣] .

تقسيمات أخرى للأساليب :

ذكر ابن قتيبة أن الكلام أربعة : أمر ، وخبر ، واستخبار ، ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب ، وهي الأمر ، والاستخبار والرغبة ، وواحد

---

(١) البلاغة الاصطلاحية ص١٤٧-١٥٠ .

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ص ١٢٠ وما بعدها .

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها دكتور تمام حسان ص ١٨، ١٩ .

يدخله الصدق والكذب ، وهو الخبر[1] ، ولا يدخل الإنشاء غير الطلبي هذا التقسيم ، والعلوي يقسم الإنشاء إلى طلب سلبي ، وطلب إيجابي ، فيجعل من الإيجابي الأمر والتمني ، ومن السلبي النهي ، ولا يعرض للإنشاء غير الطلبي[2] .

وقد نقل الإمام السيوطي تقسيمات أخرى للأساليب ، ورجح تقسيمه إلى خبر وإنشاء ، بعد ما نقل أقوالاً وتقسيمات كثيرة ، منها تقسيم الأسلوب إلى خبر وطلب وإنشاء ، وهناك من قسم الأسلوب عشرة أقسام ، ومنهم من قسمه تسعة أقسام[3] .

والدكتور تمام حسان قسم الأسلوب ثلاثة أقسام ، فالجملة عنده : خبرية ، وشرطية ، وإنشائية ، والذي يعنينا هنا الإنشائية ، وهي عنده نوعان وطلب وإفصاح ، والمقصود بالإفصاح عنده الإنشاء غير الطلبي ، وقد ذكر أساليب الإنشاء غير الطلبي تحت الإفصاح[4] .

والحق أن كل هذه التقسيمات لا تقدم ولا تؤخر في الدرس البلاغي والأولى اتباع ما عليه جمهرة العلماء من تقسيم الكلام إلى القسمين المشهورين (الخبر والإنشاء) . وإنما ذكرنا ما ذكرنا حتى لا يفوتنا شيء مما له اعتلاق بالموضوع .

---

(١) أدب الكاتب ص ١١ .

(٢) الطراز للعلوي ٢٨٠/٣ ، ٢٨١ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٩٧/٢ ، ٩٨ .

(٤) اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٣٦٣ والبيان في روائع القرآن ص ٥٧ كلاهما للدكتور تمام حسان .

الخلاف في أسلوب المدح والذم أخبر هو أم إنشاء ؟

ذكر جماعة من العلماء أن أسلوب المدح والذم أسلوب خبري ، منهم نجم الدين الاستراباذي في حكم الأدباء حيث يقول : في كون فعلي التعجب وفعلي المدح والذم ، وكم الخبرية إنشاء نظر ، لأن فعلي المدح والذم يحتملان الصدق والكذب باعتبار ما لأجله المدح والذم ، وأن يحتملها باعتبار نفس المدح والذم ، ولذلك لما بشر أعرابي بمولودة ، وقيل : نعمت المولودة ، قال : والله ما هي بنعمت المولودة»[1] .

وقد رد محمد بن علي الجرجاني ذلك ، لأن فعل المدح ليس نسبته التي هي صورة اللفظ مسبوقة بنسبة أخرى للمدح ، حتى يكون بين النسبتين المطابقة وعدمها[2] .

أما احتمالهما الصدق والكذب باعتبار ما لأجله المدح والذم ، فليس بسائغ ؛ لأنه ما من أسلوب ، إلا ويحتملهما بوجه من الوجوه ، وكذلك حين أتكلم بأسلوب مدح ، أو أسلوب ذم لا يسبق ذلك أمر في الواقع ، بل إن هذا الأسلوب يجسد الإحساس بالانفعال لشيء موجود إما مدحًا ، وإما ذمًّا ، دون نظر إلى احتمال ما كان الانفعال لأجله محتملا الصدق أو الكذب .

ثم إنك لا تلمح في قول الأعرابي : والله ما هي بنعمت المولودة ، لا تلمح احتمال صدق ولا كذب ، وليس في نفي الأعرابي مدح الأنثى تكذيبًا لمدح البشر ، بل هو يواجه استحسان المبشر ، باستقباح ما استحسنه ، فأنا من الممكن أن أنفعل بمحامد رجل فأقول : نعم الرجل ،

(١، ٢) الإشارات والتنبيهات ص ١٠٢ وعروس الأفراح ٢/٢٣٤ ، ٢٣٧ .

ومن الممكن أن ينفعل بمساوئه آخر فيقول : بئس الرجل ، فلا مجال لاحتمال صدق ولا كذب .

ولا غرابة في إخراج البعض لأسلوب المدح والذم من الإنشاء ، فقد أخرج ابن جني القسم إلى الخبر ، وهو أمر غريب[1] ، والحق هو ما ذهب إليه جمهور البلاغيين من عده أسلوبًا إنشائيًّا ، وذلك في تعليلهم عدم العناية بدراسة الإنشاء الغير الطلبي ، إذ رأوا أن أكثر الأساليب الإنشائية غير الطلبية في الأصل أخبار وضعت موضع الإنشاء ، وأنه يستغنى بأبحاثها الخبرية عن الإنشائية ، لأنها تنقل مستصحبة لما يرتكب فيها في الخبرية[2] . وقد تابعهم المحدثون[3] في عد أسلوب المدح والذم من الأساليب الإنشائية غير الطلبية،ولا أعرف خلافًا بين العلماء في أنها إنشاء طلبي أو غير طلبي ، ولكن الخلاف في كونه أسلوبا خبريًّا أو إنشائيًّا .

القول في عطف الإنشاء على الخبر أو العكس :

هذه المسألة الخلافية وجب إيرادها لصلتها الوثيقة بموضوع أسلوب المدح والذم في القرآن الكريم ، فقد وقع أسلوب المدح والذم في الذكر الحكيم في خمسة وثمانين موضعًا ، اثنان وأربعون موضعًا منها اقترن بالواو ، مسبوقًا بجملة خبرية لفظًا ومعنى ، وتسعة عشر موضعًا اقترنت

(١) اللمع في العربية لابن جني ص ٢٤١ .
(٢) مواهب الفتاح ٢/٢٣٧ ، الأطول ١/٢٣٢ .
(٣) أساليب بلاغية دكتور مطلوب ص ١٠٧ ، من بلاغة النظم العربي ٢/٧١ ، علوم البلاغة للمراغي ص ٦١ ، علم المعاني دكتور عبد العزيز عتيق ص ٧١ ، دلالات التراكيب دكتور محمد أبو موسى ص ١٩٢ ، معاني التراكيب دكتور عبد الفتاح لاشين ٢/١٢٣ وما بعدها ، جواهر البلاغة ص ٦٢ ، البلاغة فنونها وأفنانها ص ١٤٨ ، البلاغة الاصطلاحية دكتور قلقيلة ١٤٧-١٥٠ .

بالفاء ، وأربعة وثلاثون موضعًا وقع غير مقترن بحرف ، والطريقتان الأخيرتان لا إشكال فيهما عند الجمهور أما الطريقة الأولى فهي مسألة خلافية بين العلماء .

من المعلوم أن الإشكال يكون في الجمل المعطوفة بالواو على ما لا محل له من الإعراب ، أما المعطوف بغير الواو ، أو المعطوف على جمل لها محل من الإعراب فلا إشكال فيه . والنوع الأخير لم يقع إلا في آية واحدة من موضوعنا وهو قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾ (آل عمران:١٧٣) لأن جملة المدح ، وهي إنشائية ، معطوفة على جملة (حسبنا الله) وهي خبرية إلا أن لها محلاًّ من الإعراب ، ومع هذا لم تخل من الخلاف فيها .

فقد ذكروا أن الواو إما أن تكون من الحكاية ، أو من المحكي ، فإن كان الأول فيكون من عطف الإنشاء على الأخبار ، فيما له محل من الإعراب ، لكونهما حينئذ في حكم المفردين ، فأمر العطف ظاهر من غير تكلف التأويل ، لكن القول بجواز هذا العطف بدون التأويل عند الجمهور ممنوع لا بد له من شاهد ، ولم يثبت ، وإن كان الثاني ، وقلنا بجواز عطف الإنشاء على الأخبار مطلقًا ، أو قلنا بجواز عطف القصة على القصة ، أي مضمونًا على مضمون ، فالأمر ظاهر أما عند الجمهور فلا بد من التأويل في جانب المعطوف ، أو المعطوف عليه[1] ، والآلوسي في هذا الموضع لم يرفض التقدير ، وهذا يعني أنه يرتضي الرأي الوسط من أنه عطف مضمون كلام على مضمون كلام ، أو عطف معنى على معنى ، والحق أن الآية لا تستدعى كل هذه الخلافات ، إذ هي من العطف بالواو

(١) روح المعاني ١٢٧/٤ .

على ماله محل من الإعراب فتعامل معاملة المفردات ، وهذا ما ذهب إليه العصام[1] .

وقد تجاذب الأئمة الآراء في الجمل المقترنة بالواو وقيل ما لا محل له من الإعراب ، ففريق من النحاة يجيز العطف مطلقًا[2] ، والبيانيون يمنعون مطلقًا ، والذين أجازوا استدلوا بما وقع في الذكر الحكيم ، والذين منعوا تأولوا ما ورد على خلاف مذهبهم بوجوه من التأويل .

ولابن السبكي طريقة في تقريب الخلاف إذ يقول : وحاصله أن أهل هذا الفن متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه ، ولا خلاف بين الفريقين ، لأنه عند من جوزه يجوزه لغة ، ولا يجوزه بلاغة[3] .

وفي ذلك نظر كما قال المغربي : « وفيه نظر ، لأن الجائز لغة ما لم يكن نادرًا لا ينافي البلاغة »[4] ، ويرد كلام المانعين كثرة النصوص الموجودة في الذكر الحكيم وقد بينا عددها آنفًا ، وهي نصوص من أعلى بلاغة وأشرفها .

وقد ذكر التفتازاني في حاشيته على الكشاف أن عطف الإنشاء على الأخبار كثير[5] ، والواجب أن يكون وجه الاحتكام هو النظر في النصوص الشريفة ، ومحاولة التقاط الوجه في العطف ، من أجل ذلك كثرت التأويلات ، ويمكن إجمال طرائقهم فيما يلي :

---

(١) الأطول ٢/٨ .
(٢) مغني اللبيب ٢/٤٨٢-٤٨٤ .
(٣) عروس الأفراح ٣/٢٦ ، ٢٧ .
(٤) مواهب الفتاح ٣/٢٦ .
(٥) دلالات التراكيب ص ٣٢٥ .

أولاً : أن الواو عطفت قصة على قصة ، أو مضمون كلام على مضمون كلام ، أي معنى على معنى ، مثال ذلك ما قيل عند قوله تعالى : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ** ﴾ (البقرة:٢٤،٢٥) ذكروا أن الواو عطفت جملة وصف ثواب المؤمنين ، على جملة وصف عقاب الكافرين[١] . وقد لخص صاحب الكشف القول في ذلك فقال : إنه من باب ضم جمل مسوقة لغرض إلى أخرى ، مسوقة لآخر ، والمقصود بالعطف المجموع ، وشرطه المناسبة بين الغرضين[٢] ، أو تضمين الإنشاء معنى الخبر أو العكس[٣] .

ثانيًا : أن الواو للعطف ، ويقدر محذوف إما في جانب المعطوف ، وإما في جانب المعطوف عليه ، فيقولون في آية البقرة : بلغ يا محمد الذين كفروا[٤] ، أو حذر الذين كفروا ... ويبدو أن هذا لا يسوغ دائمًا ، فمثلاً في سورة الصف : ﴿ **وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الصف:١٣) **عطف** قوله: (وبشر) على قوله: (تؤمنون) لكونه بمعنى آمنوا ، لقوله : يغفر لكم بالجزم جوابًا عنه ، وفيه أيضًا نظر ، لعدم المجانسة

---

(١) الكشاف ٥١/١ ، الإيضاح ٧٥/٣ ، ٧٦ ، عروس الأفراح ٧٥/٣ ، ٧٦ ، الإشارات والتنبيهات ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، مغني اللبيب ٤٨٣/٢ ، ٤٨٤ .

(٢) عن دلالات التراكيب صحيحة .

(٣) التبيان للطيبي ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٤) عروس الأفراح ٧٥/٣ ، ٧٦، والإشارات ص١٢٩-١٣١، التبيان ص١٤١، ١٤٢.

لكون تؤمنون مسند إلى الكفار ، و(بشر) مسند إلى النبي . كذا قال محمد الجرجاني[1] ومنهم من يقدر قل ، أو قلنا حتى يتم التجانس بين المتعاطفين ، المهم أن العطف يكون على مقدر .

ثالثًا : ذكر الشيخ أبو موسى أن الواو التي ذكروا أنها عطفت معنى على معنى أو قصة على قصة ، هي ما سماها ابن هشام واو الاستئناف ، ثم خلص إلى أنه يمكن أن نسمي الجمل التي جاءت على هذه الطريقة باب ضم جمل مسوقة لغرض إلى أخرى مسوقة لغرض[2] .

هذا باستقراء كلام المفسرين في موضوع دراستنا وجدنا تأويلاتهم في الجمل التي من هذا الباب لا تخرج عن توجيهات يمكن حصرها فيما يلي :

أولاً : أن الواو في كثير من المواقع للاعتراض أو الحال .

ثانيًا : أن الواو للاستئناف .

ثالثًا : أن الواو عطفت جملة الإنشاء على جملة إنشاء محذوفة .

رابعًا : أنهم قدروا محذوفًا يسوغ العطف .

وأخلص من كل هذا إلى أن الواو ما لم تكن واو الاعتراض ، أو الحال فهي الواو الاستئنافية التي مهمتها ضم جملة مسوقة لغرض إلى أخرى مسوقة لغرض .

---

(١) الإشارات والتنبيهات ص ١٣١ والكشاف ٩٥/٤ .

(٢) دلالات التراكيب ص ٣٢٥-٣٢٩ .

من خصائص أسلوب المدح والذم :

يمكن استخلاص خصائص لهذا الأسلوب توجد في كل جملة ، وكل تركيب ، ثم يتفرد كل تركيب بعد ذلك ـ حسب سياقه ، وإضاءة مقامه ـ بمقصد خاص .

١- يفيد هذا الأسلوب الإطناب بطريق الإيضاح بعد الإبهام ، فالإبهام يوجب ألم النفس لجهلها به ، والتفسير يوجب لذتها ، واللذة بعد الألم أقوى منها ابتداء .

٢- أن الإيضاح بعد الإبهام الكائن من باب نعم ، يصح أن يقصد به إراءة المعنى في صورتين مختلفتين في مقامه ، وأن يراد به زيادة تمكين الممدوح في القلب ، وزيادة تقبيح المذموم في القلب .

٣- أن الإيضاح بعد الإبهام بهذا الأسلوب يمكن أن يراد به كمال لذة العلم حيث يراد به إمالة السامع لهذا الكلام ، فتتم محبته للممدوح .

٤- أن في هذا الأسلوب إبرازًا للكلام في معرض الاعتدال ؛ نظرًا إلى إطنابه من وجه ـ بالإيضاح بعد الإيهام ـ وإيجازه من وجه آخر بالحذف ، ففي ذلك إيهام للجمع بين المتنافيين (الإيجاز والإطناب) ولا شك أن إيهام الجمع بين المتنافيين من الأمور المستغربة ، التي تستلذها النفس ، وبذلك تكون قد اجتمعت فيه جهتا البلاغة (الإيجاز والإطناب) [(١)] .

---

(١) انظر شروح التخليص ٣/٣١٣ وما بعدها ، الأطول ٢/٤٢ ، الإشارات والتنبيهات ص١٥٣ ، علوم البلاغة للمراغي ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، أساليب بلاغية دكتور مطلوب ص ٢٣٢ .

٥- أن هذا الأسلوب يفيد المبالغة في الذم أو المدح .

٦- أنه يجب فيه تقديم المسند على المسند إليه ، وذلك على إعراب المخصوص مبتدأ مؤخرًا ولم يوجد المسند إليه مقدمًا في الذكر الحكيم ، فيما ورد منه .

٧- أن الفعل (بئس ونعم وما جرى مجراهما) كأنه يسند مرتين ، إلى الفاعل مرة ، وإلى المخصوص مرة أخرى ، مما يمكن معنى المدح أو الذم ويؤكده .

٨- أن هذا الأسلوب يفيد المبالغة من وجهين من كون فعلي المدح والذم أجمع للمذام ، وكون الفاعل عامًّا .

هذه مقاصد عامة ، وخصائص عامة لهذا الأسلوب ، ولكل تركيب بعد ذلك ما يختص به من لطائف وإيحاءات ، نحاول ـ بعون الله ـ التنقيب عن بعضها قدر الطاقة .

• حصر الآيات موضع البحث

أولاً : أسلوب المدح : (المدح بنعم)

(البقرة ٢٧١، آل عمران ١٣٦، ١٧٣، النساء ٥٨، الأنفال ٤٠، الرعد ٢٤، النحل ٣٠، الكهف ٣١، الحج ٨٧، العنكبوت ٥٨، الصافات ٧٥، ص٣٠، ٤٤، الزمر ٧٤، الذاريات ٤٨، المرسلات ٢٣) .

المدح بما جرى مجرى نعم :

(النساء ٦٩، الكهف ٣١، الفرقان ٧٦)

ثانيًا : أسلوب الذم : (الذم ببئس)

(البقــرة ٩٠، ٩٣، ١٠٢، ١٢٦، ٢٠٦، آل عمــران ١٢، ١٥١، ١٦٢، ١٨٧، المائدة ٦٢، ٦٣، ٧٩، ٨٠، الأنفال ١٦، التوبـة ٧٣، هـود ٩٨، ٩٩، الرعـد ١٨، إبـراهيم ٢٩، النحـل ٢٩، الكهـف ٢٩، ٥٠، الحـج ١٣، ٧٢، النـــور ٥٧، ص ٥٦، ٦٠، الزمـــر ٧٢، غـــافر ٧٦، الزخـــرف ٣٨، الحجـــرات١١، الحديـــد ١٥، المجادلـــة ٨ ، الجمعـــة ٥، التغـــابن ١٠، التحريم٩ ، الملك ٦) .

الذم بما جرى مجرى (بئس)

(النساء ٢٢، ٣٨، ٩٧، ١١٥، المـائدة ٦٦، الأنعام ٣١، ١٣٦، الأعراف ١٧٧، التوبـة ٩، النحـل ٢٥، ٥٩، الإسـراء ٣٢، الكهـف ٢٩، طـه ١٠١، الفرقـان ٦٦، الشـعراء ١٧٣، النمـل ٥٨، العنكبـوت ٤، الصـافات ١٧٧، الجاثية ٢١، الفتح ٦، المجادلـة ١٥، المنـافقون ٢، الكهـف ٥، الحـج ٧٣، غافر ٣٥، الصف ٣) .





الفصل الأول

من أسرار أسلوب المدح في الذكر الحكيم

وقع أسلوب المدح في سياقات متعددة في الذكر الحكيم ، والذي يظهر أن المدح أو الذم لا يقصدان لذاتهما ، وإنما يأتيان لإثبات غرض من الأغراض ، أو إبراز مقصد من المقاصد ، ولما كانت هذه الأساليب بهذه الطريقة تناولنا مواضعها بحسب سياقاتها ، إذ السياقات هي التي تحدد الغرض الذي سيق من أجله الأسلوب .

أسلوب المدح في سياق الحديث عن الصدقة

لم يقع ذلك إلا في موضع واحد من الذكر الحكيم قال تعالى : ﴿ **إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (البقرة: ٢٧١) .

وقعت هذه الآية الكريمة بعد حديث طويل عن الصدقة الخالصة ، والصدقة المتبوعة بالمن والأذى ، ولم يمتد الحديث عن الصدقة في سورة من سور الذكر الحكيم امتداده في هذه السورة الكريمة ؛ تناسبًا مع مطلعها ، ونظرًا إليه ، إذ كان وصف المؤمنين بالإنفاق من أعلى أوصاف المؤمنين ﴿ **ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ (البقرة:٣) .

ولك أن تسأل هنا عن سبب المجيء بأسلوب المدح ، بل بما هو أجمع للمدح ، أو التناهي في المدح ؟ والجواب إن شاء الله ـ أنه لما طال

الحديث عن الصدقة المتبوعة بالمن والأذى ، فكان ذلك ـ غالبًا ـ ما يظهر في الصدقات المبدأة ، إذ هي فطنة ذلك ، جاء بأسلوب المدح نفيًا للشك عنها ، هذا هو المقصود من إيراد أسلوب المدح فيما يبدو ، ويمكن تحديد الغرض في هذا السياق ، بأن أسلوب المدح جاء لقصد نفي الشك عن الصدقة المبدأة ، ولأنها مظنة ذلك حبرها بأمرين ، أولهما : تقديمها على صدقة السر ، ثانيهما : أسلوب المدح .

هذا وقد وقعت الآية الكريمة بأسلوب الشرط ، وبنيت على التقابل (إن تبدو ... وإن تخفوها) وذلك مما يوحي أن الصدقتين ما أخلص فيهما ، فهما مقبولتان عند الله ، وإن تباينت الطرائق في أدائهما ، يدل على ذلك أيضًا جواب الشرط في كل منهما (فنعما هي) (فهو خير لكم) .

وقد ذكر سيبويه والكسائي أن (ما) معرفة تامة في (نعما) بمعنى الشيء ، والتقدير : نعم الشيء هي ، وأنها فاعل لكونها بمعنى ذي اللام ، أي في العموم ، وقد ضعف ذلك بعضهم ، لعدم مجيء (ما) معرفة تامة في غير هذا الموضع[1] .

ولا يمكن أن تكون (ما) هنا موصولة ، لأن الموجود بعدها كلمة (هي) وهي لفظًا مفرد لا يصلح صلة للموصول ، وليست بموصوفة أيضًا ، لأن الضمير لا يوصف به ، فهي نكرة ، وقد أعربها بعضهم تمييزًا ، والفاعل مقدر[2].

---

(١) انظر الكتاب ٣٧/١ ، همع الهوامع ٨٦/٢ ، الأشموني ٣٥/٢ ، ٣٦ دراسات لأسلوب القرآن ٣٦٠/١٠ .

(٢) الكشاف ٣٩٧/١، مفاتيح الغيب ٧١/٧، ٧٢، أنوار التنزيل ٥٨٢/١، حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي ٥٨٢/١، روح المعاني ٤٤/٣ .

وقد ذكروا أن معنى كونها نكرة تامة ، أي متوغلة في الإبهام ، لا يقيد وصفها بما يخصصها ، فتمامها من حيث عدم إتباعها بوصف ، لا من حيث إنها واضحة المعنى ، ولذلك تفسر بشيء[1] ، ومعلوم أن (نعما) أصلها نعم ما ثم حدث الإدغام .

على أية حال . ما هنا عامة ، تمييزا كانت أو فاعلاً ، لأنها إن كانت تمييزًا فهي تفسر الفاعل ، فلا يخرج الفاعل عن العموم في الحالتين ، كما أن (ما) أدخل في الإبهام ، وقد التقط البقاعي وجه التناسب بين (نعم) التي تفيد المدح العام ، و(ما) التي هي أدخل في الإبهام ، فقال بعد الحديث عن مناسبة الآية : « فجمع لها الأمداح المبهمة ، لأن « نعم » كلمة مبالغة جمع المدح كله ، و(ما) كلمة مبهمة تجمع الممدوح ، فتطابقتا في الإبهام »[2] .

والمخصوص بالمدح هنا الضمير (هي) وقد جاء مؤخرًا وهو مسند إليه ، وفي تأخيره تشويق إلى ذكره ، فإن النفس ما إن تسمع مدحًا ، إلا وتشرئب إلى معرفة الممدوح ، وتطمح إلى ذكره ، وفي تعريفه بالضمير زيادة عقد لجملة الجواب بجملة الشرط ، حيث ظهر بأسلوب الشرط أن المدح عوض الإبداء ، وجزاء له ومترتب عليه ، وكل ذلك مما يدفع غائلة التهم عن الصدقات المبدأة . أضف إلى ذلك ما في الأسلوب من الخصائص العامة ، من الإيضاح بعد الإبهام ، وما يحصل به من اللذة وتعلق النفس ، وما في هذا الأسلوب من طرفي البلاغة (الإيجاز والإطناب) وغير ذلك مما يستصحب في كل أسلوب مدح أو ذم .

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٩٧ .

(٢) نظم الدرر ١/٥٢٦ .

أسلوب المدح
في سياق الحديث عن موقف المؤمنين من الأمر الشرعي

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

(آل عمران:١٧٢،١٧٣) .

الآية الكريمة نزلت ضمن آيات كريمات فيما سمى في السير بغزوة ذات القروح التي أعقبت غزوة أُحُد ، وكانت أُحُد درسًا شديد البلاء لتوجيه المؤمنين إلى طاعة أمر رسول الله ﷺ وإن بدا لهم وجه الخير في خلافه .

فليس لهم اتباع هواهم بحال من الأحوال ، ثم دعوا بعد عودتهم من أُحُد ، وقد أصابتهم قروح شديدة ، وأنهكت قواهم الحرب ، دعوا إلى الخروج للجهاد ، وخصت الدعوة من كان موجودًا في أُحُد فقط ؛ ابتلاء لهم في موقفهم من أمر الله ؛ وكشفا لغيرهم كيف يفيد المؤمنون من الابتلاءات ؟ حتى وإن أحاط بهم الخوف من كل جانب ، حتى وإن أحسوا بالضعف يحيط بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وذلك قوله : **﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾** (آل عمران: ١٧٣) لذا جاء حرف التعقيب (فزادهم) كشفا عن سرعة جوابهم ، وتمام انقيادهم لأمر الله ، **﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾** (آل عمران: ١٧٣) والظاهر - والله أعلم - **أن**

مقصودهم الأعلى من سوق أسلوب المــدح هو إظهار تمام الانقياد لأمر الله ، وتمام الامتثال له ، فجيء بالأسلوب الكاشف عـن التنـاهي في مـدح الموكول إليه ، المفوض إليه جميع الأمور .

وجمـلــة ﴿ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ معـطـوفــة عـلــى قولـه : ﴿ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:١٧٣) فهي معطوفة على ما له محل مـن الإعـراب ، مـن عطـف الإنشـاء علـى الخـبر ، وقـد ذكـر العلمـاء أن مثـل هـذا لا تطلـب منـه إلا المناسبة[١] .

وقد علل البقاعي لمجيء أسلوب المدح بقوله : « ولمـا كـان ذلـك هـو شــأن الوكيل ، وكــان في الوكـــلاء مـن يـــذم قـال : ﴿ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣) أي الموكول إليه المفـوض إليـه جميـع الأمـور[٢] » كأنـه يقول شأن الموكول إليه أن يكون كافيًا ، ولما كان هناك مـن الـوكلاء مـن يذم ، جيء بأسلوب المدح تأكيدًا لكافيته المتوكلين ، ووقايتـه إيـاهم مـن كـل سـوء ، ومعـنـى هـذا أن أسلوب المـدح جـيء به هنا للتأكيـد ، وهـو لا يتنافى مع ما ذكرته استنباطًا من تظاهر السـياق علـى إظهـار المـؤمنين تمام امتثالهم لأمر الله ـ عز وعلا ـ ثقة في نصره لهـم ، واطمئنانًـا لكافيتـه لهم من عدوهم .

وقد لحظت أن البقاعي يجري (فعيل) (الوكيل) على مفعول ، وقد ذكر ذلك غيره[٣] ، وذكر آخرون أن (الوكيل) بمعنى اسم الفاعل أي (الكافي) ، واستدلوا لصحة ذلك ، بأن نعم سبيلها أن يكون الذي بعدها ، موافقًا للذي

---

(١) روح المعاني ١٢٧/٤ ، التحرير والتنوير ١٧٠/٤ .
(٢) نظم الدرر ١٨٤/٢ .
(٣) الكشاف ٤٨١/١ ، أنوار التنزيل ٦٨٨/١ ، روح المعاني ١٢٧/٤ .



قبلها تقول : رازقنا الله ، ونعم الـرازق[1] ، كـأنهم يريـدون أن المعنـى هنـا كافينا الله وهو الكافي ، وهو ـ والله ـ وجه كاشف عن طريقـة علمائنـا في تحديد دلالة الصيغة بناء على ما يقتضيه جريان السياق ، وتحدر الكلام .

المهم أنك ترى الفاعل وقع بـلام الجـنس ؛ تناهيًـا في مـدح كفايـة الله أهله ، وحمايتهم ، والمخصـوص بالمـدح هنـا محـذوف ؛ إشـارة إلى أنـه لظهور تعينه ووضوح تحديده ، وأنه لا يمكن أن يلتبس بغيره حذف إظهار التمام التعين وإلماعًا أي أنه لا يغيب عـن الخـاطر ، وفي تـأخيره تشـويق إلى ذكره ، وفي الإيضاح بعد الإبهام حصول كمال اللذة للعلم بعد الجهل ، وللإظهــار بعــد الإخفاء وغير ذلك مما يمكن أن يظهر لك ـ مضافًا إليـه ما ذكر في التمهيد في الخصائص العامة لهذا الأسلوب .



(١) مفاتيح الغيب ١٠١/١٩ .



أسلوب المدح
في سياق الحديث عن الأمانة والعدل

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا** ﴾ (النساء:٥٨).

ذكر المفسرون هنا كلامًا يكتب بماء التبر لا بالحبر ، ومن مثل هذه المواضع شققت موضوع البحث ، وأيقنت أن المدح وحده ليس مقصدًا تسعى التراكيب القرآنية إليه ، وإنما تقصد أمور ولطائف يأتي أسلوب المدح ليكون المتم لها . وموضع البحث في الآية الكريمة ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ** ﴾ (النساء:٥٨) .

خذ هذه الأقوال فقد ذكروا أن هذه جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها متضمنة لمزيد اللطف بالمخاطبين ، وحسن استدعائهم إلى الامتثال »[١] .

وتكلم البقاعي على المناسبة فقال : « ولما أخبرهم بأمره زادهم رغبة بقوله : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ** ﴾ (النساء:٥٨) وحثهم على المبادرة إلى حسن الامتثال بقوله : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ** ﴾ (النساء:٥٨) مكررًا لهذا الاسم الشريف ، ليحتذوا في الترقي في طهارة الأخلاق إلى حد لم يبلغه غيرهم »[٢].

(١) أبو السعود ٢/١٩٢ ، روح المعاني ٥/٦٤ .
(٢) نظم الدرر ٢/٢٧١ .





وقد ذكر ابن عاشور أن جملة ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ** ﴾ (النساء:٥٨) واقعة موقع التحريض على امتثال الأمر »[١] .

فيكون المقصد من أسلوب المدح : **حسن الاستدعاء إلى امتثال الأمر** ، والمدح وسيلة عالية إلى حسن الاستدعاء ، أو المقصد : الحث على المبادرة إلى حسن الامتثال ، أو المقصد : التحريض على امتثال الأمر ، وكلها استنباطات جيدة لعلماء الأمة .

وقد وقعت جملة المدح خبراً لإن ، فأفاد ذلك تأكيد التناهي في المدح ، وذلك يضيف إلى المقصد من المدح زيادة في الترغيب ، وقد أعرب العلماء (ما) في نعما إعرابات متعددة ، فهي إما أن تكون نكرة تامة ، وجملة يعظكم صفة موصوف محذوف ، وهو المخصوص بالمدح ، وإما أن تكون (ما) تمييزاً ، وفاعل نعم محذوف ، وجملة يعظكم به صفة لـ(ما) ، وإما أن تكون (ما) موصولة ، فاعل نعم ، وجملة يعظكم صلة الموصول ، وهو الوجه الأبعد من التكلف والأولى ، وقد اتفقوا على أن المخصوص بالمدح محذوف[٢] .

وأغرب ما قيل في (ما) أنها زائدة كافة نعم عن العمل[٣] ، وليس له وجه لأن نعم ليست من النواسخ ولا الحروف ، فوق أنه لم يقل أحد بذلك .

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ٩٦/٥ .

(٢) الكشاف ٥٣٥/١ ، مفاتيح الغيب ١٤٢/١٠ ، أنوار التنزيل ٤٤/٢ ، أبو السعود ١٩٢/٢ زادة على البيضاوي ٤٤/٢ ، روح المعاني ٦٥/٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٩٦/٥ .

ويمكن أن يكون وراء التعبير بـ (ما) هنا إلماع إلى أن كل ما يعظ به الله ممدوح ، وذلك أن (ما) أدخل الموصولات في الإبهام ، ففي التعبير بها شمول وعموم ، وحين تفسر بسياقها هنا ، بأن المقصود بها أداء الأمانات والحكم بالعدل ، يفيد هذا التفسير ، زيادة اختصاص هاتين الصفتين بمزيد مدح ، وتأكيد المبادرة إلى حسن امتثال لهما ، هذا وفي التعبير بالمضارع (يعظكم) دلالة على استمرار وتجدد وعظ الله عباده ، والمخصوص هنا بالمدح حذف بعد تأخيره ، فوراء التأخير تشويق إلى ذلك الممدوح ، ثم بعدما يتشوق السامع والقارئ إليه لا يجده ، فيعود مسرعًا إلى السياق بحثًا وتنقيبًا عنه ، فالتأخير يثير القارئ ، والحذف يلهب إثارته مع ما في ذلك من الإيجاز ، والإطناب ، كل ذلك يؤدي إلى إعادة النظر في التركيب مرات لفقه دلالته ، واستكشاف أهميته ، والسياق يدل على أن المخصوص بالمدح هنا أداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقد حذف لتعينه بالسياق ، غير أن الحذف فيه إثارة كما ذكرت .

أسلوب المدح
في سياق الحديث عن نصر الله المؤمنين

قال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ .
(الأنفال:٣٨-٤٠)

السياق هنا غيره في سورة الحج ، مع أن كلا من الآيتين مختوم بالصيغة نفسها ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الأنفال:٤٠) ؛ لذا لا تجد الغرض والمقصد واحدًا ، وإنما يقصد من أسلوب المدح هنا غرض يتلاءم والسياق ، ويقصد منه في سورة الحج غرض يتلاءم وسياق سورة الحج .

جاء أسلوب المدح هنا في سياق الأمر بقتال الكافرين ، ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ (الأنفال:٣٩) ولا يخرج حال الكافرين عن أمرين ، إما أن ينتهوا فلا يقاتلوا المؤمنين ، وإما أن يعاودوا قتالهم ، والملحوظ أن الأمر الأول ختم بقوله : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال:٣٩) ومعلوم أن هذه الجملة الخبرية ، لا يراد منها الإخبار وإنما يراد منها أمران ، **أولهما** : بتهديد الكافرين في حالة الانتهاء ، أن تكون منهم خدعة ، أو أن يكون منهم تدبير ، **وثانيهما** : تطمين المؤمنين أن الكافرين تحت بصر الله ورقابته ، وذلك أدعى لاطمئنانهم ، مع أنهم لا يقرون بغيره .

أما الأمر الثاني : ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ ﴾ (الأنفال:٤٠) ومعلوم أن الأمر في (فاعلموا) ليس على حقيقته ، وإنما المراد منه تحقيق حسن الولاية ، ويمكن أن يفيد تطمين المؤمنين أيضًا ، فإنه إذا ما كان الله ـ عز وعلا ـ في حالة عدم القتال راقب الكافرين ، فهو في القتال أقوى مراقبة ، وإذا ما كان كذلك فأكرم به من مولى ، فتحدر السياق هو الذي ساق إلى أسلوب المدح ، ولم يسغ هنا أن يقال : نعم الوكيل ، نعم العزيز ... أو غير ذلك ؛ لأنه لا يتواصل مع السياق ، لأنه إذا ما كان الله مولاك ، فإن قتالك يكون أعنف وأشد ، لأنك تقاتل بقلبك وجوارحك ثقة بولاية الله ، ومع بعد القياس حين يتولى حمايتك أحد أقوياء الأرض ، انظر حالك في تصرفاتك ، فكيف بك إذا ما كان مالك الكون كله هو مولاك ؟ فتحدر السياق جار هنا على تطمين المؤمنين ، وهو المقصود الذي تتظاهر عليه التراكيب ، وقد أكد أسلوب المدح هذا المقصد أحسن توكيد ووفاه ، **لغرض زيادة تطمين المؤمنين ، أضف إلى هذه الزيادة زيادة أخرى ، هي زيادة التطمين بالنصير المظفر ﴿ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾** (الأنفال:٤٠).

وأسلوب المدح متناسب مع المقصد تمام التناسب بما فيه من الخصوصيات ، الإيجاز والإطناب ، والتأكيد ، وقد جاءت جملة المدح مستأنفة لأنها إنشاء ثناء على الله ، فكانت بمنزلة التذييل ، وعطف على قوله : ﴿ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ ﴾ (الأنفال:٤٠) قوله : ﴿ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الأنفال:٤٠) لما في المولى من معنى النصر »[1] .

فجملة المدح تأكيد لقوله ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ ﴾ (الأنفال:٤٠) ، وفاعل نعم الأولى (المولى) ، وفاعل نعم الثانية (النصير) والمخصوص

(١) التحرير والتنوير ٣٤٨/٩ .

بالمدح محذوف في التركيبين ، وفي حذفه إلماع إلى تعينه ، ومعنى هذا أنك لو مدحت أفراد جنس كل منهما بمدائح ، لكان الله عز وعلا ـ أجمع لهذه المدائح ، بل وأعلى منها بما لا يخطر على قلب أحد .

وأختم هذا الموضع بنص للبقاعي ـ رحمه الله ـ في التقاط وجه التناسب حيث يقول : ثم استأنف مدحه بما هو أهله تعريفًا بقدره ، وترغيبًا في توليه ، فقال : ﴿ **نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ** ﴾ ، ولم يدخل فاء السبب هنا ، لأن المأمور به العلم ، واعتقاد كونه مولى واجب لذاته ، لا لشيء ، بخلاف ما في آخر الحج ، فإن المأمور به هناك الاعتصام (ونعم النصير) أي : فلا تخافوهم أصلاً ، وإن زادت كثرتهم ، وقويت شوكتهم ، فلا تبارحوهم حتى لا يكون إلا كلمة الله »[1] ، ونصه كاشف عن أن أسلوب المدح له مقصد وهدف ، وكذلك كشف بكلامه عن أن السياقين متغايران .

قال تعالى : ﴿ **وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ** ﴾

(الحج:٧٨) .

كأني بالآية الكريمة تنادي على قوله تعالى في أوائل السورة ، قال تعالى : ﴿ **يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ** ﴾ (الحج:١٢،١٣) . وقد تحدد السياق كاشفا عن نصر الله عباده المؤمنين ، ودحره كيد المشركين ﴿ **مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ** ﴾ (الحج:١٥).

---

(١) نظم الدرر ٣/٢١٨ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ (الحج:٣٨) والسياق يبين قدرة الله ، وضعف المعبودين من دونه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا ﴾ (الحج:٧٣) ثم ختمت السورة الكريمة بأوامر متتابعات لله ـ عز وعلا ـ إلى عباده المؤمنين ، من بعد السياق الطويل من مطلع السورة الكريمة ، والذي يتدافع لإلقاء هذه الأوامر إليهم ، وجاءت جملة المدح خاتمة لهذه الأوامر ، وقد وقعت جملة (هو مولاكم) « مستأنفة معللة للأمر بالاعتصام بالله ، لأن المولى يعتصم به ، ويرجع إليه لعظيم قدرته وبديع حكمته »[1] وبين الجملتين كمال انقطاع ، فالأولى ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ (الحج:٧٨) إنشائية لفظًا ومعنى ، والثانية ﴿ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ ﴾ (الحج:٧٨) خبرية لفظًا ومعنى ، ومع ذلك أنت تحس أن في الثانية شوب توكيد للأولى ، لأن كونه مولى يدفع إلى الاعتصام به ، والاستمساك به ، وقد جاءت الجملة معرفة الطرفين مما يفيد القصر ، وفي ذلك ترغيب للمؤمنين في طاعة الله ، وحث لهم عليها ، ثم زاد في الترغيب والحث على الطاعة ، بما فرع على هذه الجملة الاستئنافية من أسلوب المدح ﴿ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٨) والمقصود منه زيادة تأكيد الترغيب في الطاعات السابقة ، ورأسها الاعتصام بالله ، ويمكنك إبصار ذلك في قول العلامة ابن عاشور : « وفرع عليه ـ أي على قوله ﴿ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ ﴾ (الحج:٧٨) ـ إنشاء الثناء على الله ، بأنه أحسن مولى ، وأحسن نصير ... وهذا الإنشاء يتضمن تحقيق حسن ولاية الله ـ تعالى ـ وحسن نصره ، وبذلك الاعتبار حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به »[2] .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٢/١٧ .
(٢) المرجع السابق ٣٥٣/١٧ .

وقد أبصرت التغاير في سياق السورتين الكريمتين ، ومعلوم أن الاعتصام بالله ، وإقامة أوامره لا يخلو من مضايقات الضالين ، ومحاربتهم المؤمنين فخص الأمر الأخير بما يؤكد حماية الله عباده ونصره إياهم ، والسياق بذلك يتقارب مع سياق سورة الأنفال ، وفي كليهما شيء من صاحبه من أجل ذلك اتفق أسلوب المدح والذم في هيئة التركيب في الموضعين وورد كل منهما في موضعه لمقصد خاص منه شيء من الآخر .

والمخصوص بالمدح هنا محذوف قدروه[1] بـ (هو) عائدًا على لفظ الجلالة وفي حذفه إشارة إلى تعينه ، وإلى أنه لا يوصف أحد بكمال ذلك غير الله ـ عز وعلا ـ ، وإذا ما كان السر في تأخيره التشويق إليه ، فحذفه يلهب هذا التشويق .

كأنني أستشعر في هذا الأسلوب حذفًا معنويًّا لا صناعيًّا ، ألا تبصر أنه يمكن أن يكون أصل التركيب هو مولاكم فنعم المولى وهو ناصركم فنعم النصير ، فدل بالأول على الثاني ، واكتفى به عنه ، ويحمل الأسلوب بالإيجاز ، ويكون وراء هذا الحذف إشارة إلى أن كونه ناصرًا أمر أثبت من أن يذكر بعد تقرير أنه مولى ، إذ النصر من صفات المولى ، وفي ذلك زيادة في الترغيب وإعلاء للتطمين .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ** ﴾ (الصافات:٧٥) . هذا هو الموقع الوحيد من قصة سيدنا نوح عليه السلام ـ الذي وقع فيه أسلوب المدح ، وقد اقترن أسلوب المدح بالفاء ، وهي فاء « تفريع على نادانا ، أي

---

(١) أنوار التنزيل ٣/٣٩٦ .

نادانا فأجبناه ، فحذف المفرع لدلالة فلنعم المجيبون عليه ، لتضمنه معنى (فأجبناه) جواب من يقال فيه نعم المجيب»[1].

وهذا أسلوب في البناء عجيب ، إذ الفاء عطفت جملة المدح على محذوف تقديره (فأجبناه) وفي حذفه آية على سرعة الإجابة ، حتى كأنه لم يكن هناك أدنى فرق زمني بين النداء والإجابة ، وذلك مما يدل على عظمة المجيب ، ويستوجب مدحه ، من أجل هذا النظم جاء أسلوب المدح أضف إلى ذلك أن سرعة الإجابة **بهذه الطريقة فيها تخويف للمشركين وتهديد للكافرين ، وتطمين للمؤمنين ، ولعل ذلك هو الغرض من سوق أسلوب المدح** ، وقد جاء بصيغة الجمع المفيد هنا التعظيم ، وهو يتساوق مع تخويف الكافرين إشعاراً لهم بقوة الانتظام ، وشدة الأخذ ، وفيه أيضًا تطمين للمؤمنين .

والمخصوص بالمدح هنا محذوف كما ذكر العلماء[2] ، وهو مقدر بضمير جمع (نحن) للتعظيم ، وفي حذفه إشارة إلى تعينه ، وتفرده ، وأنه لا أحد مثله في سرعة الإجابة ، وقوة الأخذ ، وفي تأخيره تشويق إليه والأسلوب كله مشحون بالمؤكدات التي منها اللام في (فلنعم) ، وكل هذا ما يقصد منه تحذير المشركين ، يدل أيضًا على شدة إعراض قوم نوح ـ عليه السلام ـ التي استوجبت سرعة الأخذ وقوته .

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٠/٢٣ .

(٢) البحر المحيط ٣٦٤/٧ ، أنوار التنزيل ١٥٧/٤ ، إرشاد العقل السليم ٨٩/٧ ، إملاء ما من به الرحمن ١٠٧/٢ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ٣٥٦/١٠ .

أسلوب المدح في سياق الحديث عن قدرة الله وامتنانه على عباده

قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ (الذاريات:٤٧،٤٨) .

وقعت الآية الكريمة عقب تلخيص لأحوال الأمم السابقة ، وفيها يظهر قهر الله أعداءه ، وتدميرهم لما عصوا رسله ، ثم بدأ بالآية السابقة على أسلوب المدح بذكر امتنانه على عباده ، ثم وقع أسلوب المدح بالفاء ، وقد ذكر ابن عاشور أنها للتفريع[1] ، وقد جاء فاعل (نعم) مجموعًا للتعظيم ، المتناسب مع إظهار الامتنان والقدرة ، مما يلزم عنه إثارة العباد إلى شكر الله ـ عز وعلا ـ والظاهر أن إظهار ـ الامتنان هو المقصود من سوق أسلوب المدح ، والمخصوص بالمدح محذوف ، قدروه (نحن[2]) ، وفي حذفه إلماع إلى تعينه ، ودلالة على أنه لا يمكن أن يفرش الأرض ولا يمهدها إلا واحد هو الله ـ عز وعلا ـ وفي تأخيره تشويق ، وفي حذفه إثارة للانتباه .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ (المرسلات: ٢٠-٢٣) .

أسلوب المدح جاء عقب الآيات التي تتحدث عن تدمير الكون عند قيام الساعة ، وعند الفصل ، وجاءت في سياق استفهام تقريري يكشف عن

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٧ .

(٢) أنوار التنزيل ٣٩٨/٤ .

قدرة الله على عباده ، قياسًا للغائب على الشاهد ، فإن من قدر ابتداء قدير انتهاء ، وقد وقع أسلوب المدح بفاء التفريع ، أي « تفريع إنشاء ثناء »[1] وليس المقصود الثناء هنا لذاته ، **وإنما المقصود من سوقه ـ والله أعلم ـ التنويه بقدرة الله تخويفًا للعاصين** ، وتهديدًا لهم . هذا ما يظهر من جماع السياق في سورة المرسلات .

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿ فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾ (المرسلات: ٢٣) يحتمل معنيين ، إما أن يكون معناه فنعم المقدرون ، وإما أن يكون : فنعم القادرون عليه ، وقد رجح العلماء الأول[2] ، والذي أبصره أن المعنيين مرادان هنا ، فالأول لقرب السياق الدال عليه ، من حيث الحديث عن تخليق الإنسان (ألم نخلقكم) ، والثاني مستنبط من تحدر السباق من أول السورة ، فإذا ما كان الله قديرًا على طمس النجوم ، ومزج السماء ، ونسف الجبال ، فهو على الإنسان أقدر ، لأن الأئمة لا يذكرون معنى إلا تأسيسًا على دواعي السياق وتحدر الكلام ، فالتركيب لموقعه ـ فيما أبصر ـ يراد به المعنيان .

وقد جاء فاعل (نعم) بالجمع ، تعظيمًا ، وتناسبًا مع إظهار قدرة الله تخويفًا للعاصين ، وقد ذكروا أن المخصوص بالذم محذوف تقديره : (نحن[3]) ، إلماعًا إلى تعينه ، وأنه لا يمكن أن يمدح بذلك سواه ، وفي تأخيره تشويق إلى ذكره .

---

(١) التحرير والتنوير ٤٣٢/٢٩ .
(٢) روح المعاني ١٧٤/٢٩ .
(٣) أنوار التنزيل ٥٩٨/٤ .

أسلوب المدح في سياق الحديث عن الكريمين سليمان وأيوب عليهما السلام

قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ٣٠) .

هذا هو الموضع الوحيد في قصة سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ الذي ورد فيه أسلوب المدح ، ولعله ورد في هذه السورة ، ولم يرد في سواها ، لأن لها اختصاصات بقصة سيدنا داود وسيدنا سليمان ـ عليهما السلام ـ لم ترد في غيرها ، وأوسعها قصة الخصم ، وقصة الصافنات الجياد ، وقصة الفتنة ، كذلك مما اختصت به هذه السورة في قصتيهما «ووهبنا لداود سليمان» فكأن أسلوب المدح ورد زيادة تأكيد للامتنان ، ألا تراه جاء في سياق قوله تعالى لداود ـ عليه السلام ـ ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (ص: ٢٥) ، وقوله من قبل : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (ص: ٢٠) ألا ترى أن الولد الممدوح خير من يشد الله به الملك للوالد ، ولا ترى شيئًا من هذا في سياقات القصة في المواضع الأخر .

ولا تستطيع بحال أن تعلل لمجيء أسلوب المدح بأنه إنما مدح لنبوته ، لأن كل نبي جامع للممادح ، ولكن السياق هو الذي اقتضى ورود هذا الأسلوب كما حاولت تبيانه .

وشيء آخر وراء هذا الأسلوب فقوله : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ (ص: ٣٠) بهذا الوصف خاصة «العبد» وإيقاعه فاعلا لنعم ، ودلالته المفيدة أنه جامع

لممادح هذا الجنس ، ألا ترى أن كل ذلك يشعر بتمام رضا الله عنه ، وهذا مما يعلي من تأكيد الامتنان لداود ـ عليه السلام .

والمخصوص بالمدح هنا محذوف كما ذكروا[1] ، وفي تأخيره تشويق ، لأن المسند حين يكون أمرًا طيبًا تتلهف النفس إلى معرفة صاحبه ، وفي حذفه إشارة إلى تعينه ؛ جريًا على طريقة السياق في تأكيد الامتنان على داود النبي ـ عليه السلام ـ .

قال تعالى : ﴿ **وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ** ﴾ (ص:٤١-٤٤) .

هذا أبسط موضع لقصة سيدنا أيوب ـ عليه السلام ـ في الذكر الحكيم ، وقد ورد ذكر قصته في سورة الأنبياء ببسط أقل من هذا الموضع ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ** ﴾ (الأنبياء:٨٣،٨٤) .

وقد اشترك الموضعان في أصول القصة العامة لمرض هذا النبي ، ثم تفردت كل سورة بخصائص تتناسب وسياقاتها ، خذ من ذلك مثلا طريقة الدعاء ، وطريقة الإجابة في الأنبياء ﴿ **أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ** ﴾ (الأنبياء:٨٣) في ص ﴿ **أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ** ﴾ (ص:٤١) ولا شيطان مسه لعصمته لكنه أدب النبوة في الدعاء ، ما من ريب أنك تحس أن نبرة الدعاء الكاشفة عن شدة تألم

(١) أنوار التنزيل ١٨١/٤ ، زادة على البيضاوي ١٨١/٤ ، روح المعاني ١٨٩/٢٣ ، التحرير والتنوير ٢٥٣/٢٣ ، ٢٥٤ .

الداعي ، أعلى في سورة (ص) ألا تراه قال : (بنصب وعذاب) أما في الأنبياء فذكر أنه قد أصابه «الضر» ثم تلطف فقال : «وأنت أرحم الراحمين» .

من أجل هذا الفرق الذي لخصته على وجه السرعة ، جاء الجواب في الأنبياء بالفاء (فاستجبنا له) وهي تفيد التعقيب ، وتكشف عن الإسراع بالجواب ، والأسرع منه ألا يوجد حرف أصلا «أني مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك...» وهذا غير سورة الأنبياء رغم تعاقب الفاءين (فاستجبنا ، فكشفنا) .

ومن تمام رضا الله عن صبر نبيه على البلاء ، لم يشأ أن يترك لنبيه أدنى ما يحزنه ﴿ **وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ** ﴾ ، وهذه ليست في سورة الأنبياء ، ثم أعقب ذلك جملة تعليلية ، وما أغناه عن التعليل ، غير أن الحق أوردها كشفا عن تمام الرضا على هذا النبي الصابر ، ثم جاء أسلوب المدح مضيفًا زيادة تأكيد إلى هذا المقصد ، **فالمقصود من أسلوب المدح زيادة إظهار ـ تمام الرضا** ، وسبق الحديث في الآية الماضية في الفاعل والمخصوص بالمدح .

أسلوب المدح
في سياق الحديث عن ثواب المؤمنين

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٥،١٣٦) .

ورد الحديث عن ثواب المؤمنين في ثمانية مواضع في الذكر الحكيم ، تناولته حسب تقارب التراكيب في أسلوب المدح ، فكان ترتيبها على النحو الذي ترى .

وقد وقع مدح أجر العاملين هنا وفي العنكبوت وفي الزمر ، وقد وقعت كلها بنعم ، غير أن الأسلوب وقع هنا بالواو ، وفي العنكبوت من دون واو ولا فاء ، وإن كان قد قرئ هناك بالفاء ، وفي الزمر وقع بالفاء ، على هذا النحو :

﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾(آل عمران:١٣٦)، ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (العنكبوت:٥٨)، ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (الزمر:٧٤) ، وسنحاول استنباط وجه لهذا النظم ، فإن وفقنا فبها ونعمت ، وإلا فأسأل الله أن يبصر غيري .

الظاهر هنا أن تحدد السياق وجريان الأسلوب يسعيان إلى أسلوب المدح ، ويطلبانه ، وذلك أن القرآن العظيم تحدث عن المتقين وأجرهم ، ثم ذيل جزاءهم بقوله ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(آل عمران:١٣٤) ثم ذكر من بعدهم المتداركين لتقصيرهم ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾ (آل عمران:١٣٥) .

وذكر هذه الأوصاف ، مقابل أوصاف المتقين ، تشعر بقلة جزاء المتداركين **لذا جاء أسلوب المدح مضيفًا زيادة تأكيد على قبول التائبين ، هذا هو المقصود من أسلوب المدح فيما أبصر** .

وقد ذكر العلامة ابن عاشور أن جملة المدح وقعت تذييلاً لإنشاء مدح الجزاء ، وذكر أيضًا أنها معطوفة على قوله : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم** ﴾ (آل عمران: ١٣٦) ، وقال : وهو من **عطف** الإنشاء على الأخبار ، وهو كثير في فصيح الكلام[(١)] .

نعم الجملة واقعة موقع التذييل ، غير أن الأولى أن تكون الواو استئنافية ويكون المراد التأكيد على جزاء التائبين وقبولهم ، وهذا الموقع هو الذي جعل جملة المدح هنا تأتي بالواو ، أما في سورة العنكبوت فالسياق هناك لا يفتقر إلى الواو ، بل عدم وجود الواو في العنكبوت هو الأبر بالمعنى والسياق ، لأن جملة المدح هناك بينها وبين ما قبلها كمال اتصال إذ هي مسبوقة هناك بقوله : ﴿ **لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ** ﴾ (العنكبوت:٥٨) فبين جملة المدح ـ وهي إنشائية لفظًا ومعنى ، وجملة القسم ـ وهي إنشائية لفظًا ومعنى ، كمال اتصال ، إذ الثانية كأنها تأكيد للأولى ، ومن المعلوم أن (لنبوأنهم) جواب قسم محذوف ، إذ الفعل المضارع مؤكد بالنون هنا وجوبًا لوقوعه جواب قسم مقدر ، مقترن باللام ، غير مفصول بينه وبين لام القسم بفاصل ، دال على الاستقبال .

فجملة المدح في الموقعين تفيد التأكيد على ما سبق من المعنى ، وما في آل عمران جاء بالاستئناف ، والاستئناف أكثر دلالة على التأكيد من كمال الاتصال ، وكل لاءم سياقه ، ووافق مقامه .

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٩٥ .

أما مجيئه بالفاء في سورة الزمر ، فيبدو أن المراد هناك ترتب المدح من المؤمنين على ما أثيبوه ، لأن السياق هناك حديث بعد دخولهم الجنة فاختلفت السياقات لاختلاف المقامات . فآل عمران حديث عن التائبين اقتضى مزيد تأكيد ناسبه استئناف أسلوب المدح ، والعنكبوت حديث عن المؤمنين العاملين الصالحات ، فناسبه كمال الاتصال ، والمقام والسياق في الزمر للحامدين الساكنين جنات النعيم فلم يحتج إلى توكيد ، هذا ما حاولت إبصاره فالله أعلم .

ولنعد إلى الآية الكريمة بعد هذا الاستطراد ، الذي دلني على أن السياق هو الذي طلب أسلوب المدح واقتضاه أقوال الأئمة ، فقد قال البيضاوي عند قوله تعالى : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٦) « لأن المتدارك لتقصيره ، كالعامل لتحصيل بعض ما فوت على نفسه ، وكم بين المحسن والمتدارك ، والمحبوب والأجير ، ولعل[١] تبديل لفظ الجزاء بالأجر لهذه النكتة »[٢] وذكر الشيخ زادة أن الجزاء والأجر مترادفان والسياق يرضي ما ذكره البيضاوي ، ويأبى ما ذكره الشيخ زادة ، لأن استنباط الشيخ البيضاوي يؤيده ما ذيل به جزاء المتقين ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٤) فكل تذييل لاءم سياقه .

وقد ذكر الشيخ أبو السعود كلامًا طيبًا يتأيد به كلام القاضي حيث يقول : « وناهيك مضمونها دليلاً على ما بين الفريقين من التفاوت كثير ، والتباين البين ، شنئان ما بين المحسنين الفائزين بمحبة الله ـ عز وجل ـ وبين العاملين الحائزين لأجرتهم وعمالتهم »[٣] .

---

(١) أنوار التنزيل ٦٧٢/١ .

(٢) زادة على البيضاوي ٦٧٢/١ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٨٦/٢.

وشيء آخر وراء اصطفاء (أجر) فاعلا لنعم ، هو أن الشك إليه أسرع ، لأن الحديث منصب على مرتكبي الفواحش للتأكيد ، فكان وقوعه فاعلا أدفع للشك وآكد للثواب ، وفي إضافة أجرًا إلى العاملين مدح لهم أيضًا ، يتناسب والسياق المتظاهر على إشعارهم بقبولهم عند ربهم .

وقد ذكروا أن المخصوص بالمدح محذوف[1] ، وفي تأخيره تشويق إلى ذكره وفي حذفه إلماع إلى تعينه بعد التشويق إليه ، مما يدفع إلى العودة إلى السياق للبحث عنه ، والشيء إذا نيل بعد التعب أقعد في النفس منه ، إذا ورد من غير تعب ، وذلك كله يتعاون في التأكيد على أجر التائبين ، والتظاهر على زيادة إظهار قبول الله التائبين ، تناسبًا مع سعة رحمته ، وفتحًا لباب التوبة ، وإغلاقًا لباب اليأس من روح الله . ولعلك تلحظ ما في إسناد المدح إلى الأجر من الدلالة على عظمته وعلوه . ويمكن أن يكون المقصود إغراء العصاة على التوبة .

قال تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ** ﴾ (العنكبوت:٥٨).

ذكر ابن عاشور «أن جملة ﴿ **نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ** ﴾ (العنكبوت:٥٨) إنشاء ثناء وتعجيب على الأجر الذي أعطوه ، فلذلك قطعت عن العطف»[2] ، وبين الجملتين كمال اتصال كما سبق ذكره ، وواضح أن السياق هنا للإغراء على عمل الصالحات ، وأن أسلوب المدح أضاف زيادة إلى هذا الغرض ، فكيون الغرض منه زيادة الإغراء على عمل الصالحات ،

(١) البحر المحيط ٦١/٣ ، إرشاد العقل السليم ٨٦/٢ ، روح المعاني ٦٣/٤ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٢١ .

والحديث عن الفاعل ، ودلالته كالحديث في الآية السابقة ، وألحظ تناسب فاعل نعم مع السياق ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (العنكبوت:٥٨) فذكر الأجر تناسب مع ذكر العمل قبلاً ، وقد ذكر العلماء هنا أيضًا أن المخصوص بالمدح محذوف[1] ، وكل ذلك مما يتناسب وقصد الإغراء .

وقد قرئ هنا (فنعم) ، وقد ذكر الشيخ زادة : أن الفاء لعطف الجملة على الجملة التي قبلها ، لا لتفيد أن مضمون الجملة التي بعدها واقع عقيب مضمون الجملة التي قبلها من غير أن يتخلل بينهما زمان فاصل ، كما في نحو : قام زيد فقعد عمرو ، بل هي للدلالة على أن المذكور بعدها كلام مرتب على ما قبلها في الذكر ، لا أن مضمونها عقيب مضمون ما قبلها في الزمان»[2] أي أن الفاء للترتيب .

وهذا يرشح لما ذكرته قبل ذلك من افتقار السياق إلى التوكيد هنا ، ليس كافتقار سياق تركيب آل عمران .

قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ (الزمر:٧٣، ٧٤) .

بني السياق هنا على التقابل بين جزاء الكافرين ، وجزاء المؤمنين لذلك ترى أسلوب المدح مقابلا تمامًا لأسلوب الذم ﴿ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (الزمر:٧٢) ﴿ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ (الزمر: ٧٤) ، وقد جاء ،

(١) أنوار التنزيل ١٧/٤ ، إرشاد العقل السليم ٤٤/٧ ، زادة على البيضاوي ١٧/٤ ، روح المعاني ١١/٢١ .
(٢) زادة على البيضاوي ١٧/٤ .

أقوال المتقين عقيب دخولهم الجنة متعاقبة متتابعة كاشفة عن إظهار المتقين الرضا عما أثيبوا ، ثم جاء أسلوب المدح خاتمة ذلك ، والمقصود من إيراده ـ فيما يظهر ـ زيادة إظهار تمام الرضا ، وقد ذكروا هنا نكتة في فاعل (نعم) قال الآلوسي : « ولعل التعبير بأجر العاملين دون أجرنا للتعويض بأهل النار أنهم غير العاملين »[1] وذلك لأن الكلام جاء على خلاف الظاهر ، حيث كان التعبير للضمير ، فوضع الظاهر موضع المضمر . وهو مشعر أيضًا بعنوان التواضع ، إذ ورد في مقابل (المتكبرين) فعنوان التواضع العمل .

وشيء آخر وراء وضع الظاهر موضع الضمير ذكره البقاعي ، أنه قال ذلك ؛ « ترغيبًا في الأعمال ، وحثًّا على عدم الاتكال » وكلها نكات تتلاقى وتتآخى ولا تتعارض ، وهذا من ثراء التعبير القرآني ، والمخصوص بالمدح هنا محذوف لدلالة السياق عليه ، وفي تأخيره تشويق ، وفي حذفه إلماع إلى تعينه .

ويبدو أن الفاء هنا لمطلق الترتيب ، دون أن يكون لها دلالة الفارق الزمني .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا** ﴾ (الكهف: ٣٠، ٣١) .

الأسلوب هنا مبني على المقابلة ، لأن وعد الصالحين جاء عقيب وعيد الكافرين وفي وعيد الكافرين نبه على بشاعة عقابهم بقوله : ﴿ **بِئۡسَ**

---

(١) روح المعاني ٣٥/٢٤ .



﴿ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ (الكهف:٢٩) وقابل به وعد الصالحين بقوله : ﴿ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ (الكهف:٣١) .

والملحوظ أنه في وعيد الكافرين ذم الشراب والمرتفق ، وذلك لأن الشراب هو أدنى سد الحاجة ، أما في وعده الصالحين مدح كل الثواب ، وقد جاء أسلوب المدح بعد تعداد لأنواع الثواب ، وكلها مبهرة شكلا وروحًا ، ثم أعقبها بما هو أجمع للمدح ، إغراء للمؤمنين ، وإغاظة للكافرين كما ينبئ عنه أسلوب المقابلة ، وفي إسناد الفعل (نعم) إلى الثواب مبالغة تكشف عن تناهي الثواب في المدح ، فإذا ما كان الثواب ممدوحًا بهذا الأسلوب فنعم المثاب أيضًا ، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة السياق عليه ، وللإلماع إلى تعينه ، وفي تأخيره تشويق إلى ذكره ، وفي حذفه إلماع إلى أن هذا الثواب ، أصبح متعينًا للصالحين وأن ذلك أمر ذائع مشتهر لا يحتاج إلى نص ، هذا ما يشير إليه الحذف وفيه إغراء المؤمنين ما فيه ، ومن إغاظة الكفار ما فيه .

ثم عطف على أسلوب المدح أسلوبًا آخر ، وهذا هو الموضع الوحيد في المدح الذي عطف فيه ما يجري مجرى نعم على نعم ، وكأني به مدحًا للخاص بعد المدح العام ، لإيلاء الممدوح الثاني مزيد اهتمام ، وفيه كشف عن الفرق بين ما هو أصلي في المدح وما هو محمول على الأصل ، والمرتفق هنا جار على حقيقته ولكن أترى معي أن العجب لا ينقضي من جمال هذا البناء وجلاله ، ألا تراه يشعر بأن الجنة كلها بهذه الأوصاف صارت متكأ للمؤمنين ، أي مكان منها شاءوا الاتكاء اتكأوا ، وإنما أولى الذكر الحكيم المرتفق مزيد اهتمام ، لأنه كاشف عن تمام السعادة ، وزيادة الراحة ، فمن الممكن أن تحلى الأساور والذهب ، وترتدي الثياب الخضر

من السندس والإستبرق ، وليس لك من راحة البال نصيب ، فخصه الذكر الحكيم بالمدح لما في ذلك من الدلالة عن راحة المؤمنين في الجنة ظاهرًا وباطنًا ، حسنًا ومعنى . ولك أن تتأمل جمال الأسلوب بالنظر إلى ضده في السياق .

ويمكن أن يكون في كلام الشيخ البقاعي كشف عن علة اختصاص المرتفق بمزيد مدح ، إذ يقول : « ثم مدح هذا فقال تعالى ﴿ **نِعْمَ ٱلثَّوَابُ** ﴾ (الكهف: ٣١) أي هو لو لم يكن لها وصف غير ما سمعتم ، فكيف ولها من الأوصاف ما لا يعلمه حق علمه إلا الله ـ تعالى ـ وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : ﴿ **وَحَسُنَتْ** ﴾ (الكهف: ٣١) أي الجنة كلها ، وميز ذلك بقوله تعالى : ﴿ **مُرْتَفَقًا** ﴾ (الكهف: ٣١) [1] ومرتفقًا تمييز ، والفاعل ضمير مستتر ، والمخصوص بالمدح محذوف ، وفي الحذف إيجاز ، وفي التقدير إطناب للإيضاح بعد الإبهام ، وهذان الموضعان (المدح والذم) هما اللذان ذكر فيهما المرتفق في الذكر الحكيم ، وأنت تبصر بهذا التقابل أن الجنة كلها مرتفق للمؤمنين لا أي مرتفق بل أحسن مرتفق وأعجبه ، لما في حسن من إنشاء المدح مع تضمن التعجب ، كما سيق بيانه في التمهيد ، على أن ذلك كله في مقابل انتفاء المرتفق بالنسبة للكافرين .

قال تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾

(الفرقان: ٧٤-٧٦) .

---

(١) نظم الدرر ٤/٤٦٦ .

جاء أسلوب المدح استجابة لدعاء عباد الرحمن ، تناغمًا معه ، وتلاؤمًا مع طريقته من قبل ، وذلك في قولهم ـ فيما يحكيه ربنا ـ ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ (الفرقان:٦٥،٦٦) .

وقد أبصرت أن حسنت هنا جاءت مقابل (ساءت) وكلاهما محمول على أم الباب (نعم وبئس) ، فلم تكن (نعم) لتأتي في مثل هذا السياق وهذا تلاؤم في السياق بديع لن تجد سواه في الذكر الحكيم ، وقد كانت دعوة عباد الرحمن شاملة جامعة ﴿ **سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ (الفرقان:٦٥،٦٦) فكان الجواب كذلك أيضًا شاملاً جامعًا ﴿ **حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ (الفرقان:٧٦) من أجل ذلك قال علماؤنا هنا (وحسنت مقابل ساءت) [(١)] ، ولا يكادون يختلفون هنا أن حسن مستعملة استعمال (نعم).

قال البقاعي : « ودل على علو أمرها وعظيم قدرها ، بإبراز مدحها في مظهر التعجب ، فقال : (حسنت) أي ما أحسنها مستقرًّا ، أي موضع استقرار ، ومقاما أي موضع إقامة » [(٢)] وقد أجراهما على أنهما اسما مكان ، وإذا ما كان المكان قد حظي بهذا الوصف ، وتحلى بهذا الحسن ، فما أحسن ساكنيه ، وما أطيب قاطنيه .

ويمكن أن يكون المقصود من إيراد أسلوب المدح هنا **إغراء المؤمنين بالدعاء ، وتحريضهم على الاتباع ، أو الدلالة على أمر الجنة وعظيم قدرها** .

والفاعل محذوف ، وهو ضمير مستكن مفسر بما بعده ، ومستقرًّا ومقامًا تمييز والمخصوص بالمدح محذوف إلماعًا إلى تعينه ، وفي هذا

---

(١) أنوار التنزيل ٤٦٣/٣ ، روح المعاني ٥٤/١٩ .
(٢) نظم الدرر ٣٤٢/٥ ، ٣٤٣ .

زيادة إغراء لعباد الرحمن لما في بناء الأسلوب من الدلالة على اشتهار أجرهم ذاك ، وذيوع ثوابهم ، لدرجة جعلته متعينًا محددًا ، ثابتًا في العقول لا يحتاج إلى نص .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

(الرعد:٢٢-٢٤) .

سياق سورة الرعد بني على التقابل ، والكشف عن التباين بين عقبى المؤمنين وعقبى الكافرين ، وقد جاء أسلوب المدح خاتمة صفات للمؤمنين ، من وفائهم بالعقد ، وعدم نقضهم الميثاق ، وصلة الرحم ، وخشية الله ، وخوف سوء الحساب ، والصبر ابتغاء وجه الله ، وإقام الصلاة ، والإنفاق ، ودرء السيئة بالحسنة ثم ختم ذلك بالتمهيد لحسن جزائهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد:٢٢) ، ثم ذكر الجزاء ، ثم ختمه بأسلوب المدح ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد:٢٤) وتلحظ هنا أن فاعل (نعم) يتلاءم مع السياق قبله ، والسياق بعده ، أما ما قبله فقد سبق ذكره ، وأما ما بعده فقوله تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ (الرعد:٣٥) .

وتكرار لفظ (عقبى) من خصائص السورة الكريمة ، فقد ذكرت في السورة ست مرات ، وذكرت في سورة الشمس مرة واحدة في سياق غير هذا تمامًا ، وهذا مما يجعل لفاعل نعم تميزًا خاصًّا ، لا يوجد فيما يقاربه من الأساليب .

المهم أن أسلوب المدح جاء عقب الحديث عن جزاء المؤمنين ، وقد ذكر العلامة ابن عاشور أن الفاء للتفريغ ، لأن ما بعدها تفريغ ثناء على حسن عاقبتهم »[1] .

وقد أحسنوا الصنيع في الدنيا ، فأعقبهم الله مآلا جامعا للمادح في الآخرة ، ومقابلة مآل الكافرين : ﴿ **أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ** ﴾ (الرعد:٢٥) ، وفاعل نعم هنا قوله (عقبى) وإذا ما كان المآل جامعًا للمدح وكان مضافًا إلى الدار الآخرة ، فإن هذا التركيب يدل على أن هذا المآل أجمع للمدح ، في حسابهم ، وفي موقفهم ، وفي قبرهم ، وفي ثوابهم ، فيلقون الخير من أول منازل الآخرة (في القبر) إلى آخرهما وهو دخولهم الجنة ، وهذا الموضع من أساليب مدح ثواب المؤمنين ، وموضع سورة النحل ، أشمل مواضع الحديث عن مدح ثواب المؤمنين ، **والقصد من وراء سياقة أسلوب المدح عقيب جزائهم هو إغراء المؤمنين بالاتباع ، وتبشيع طريق الكافرين** .

والمخصوص بالمدح محذوف ، والتقدير : فنعم عقبى الدار عقابكم ، وفي تأخيره تشويق إليه ، مما يمكنه في النفس ، وفي حذفه علاوة على الإيجاز ، الإلماع إلى أن عقبى المؤمنين تعينت أنها خير عقبى ، وأن ذلك أصبح ظاهرًا واضحًا لا يحتاج إلى نص .

قال تعالى : ﴿ **وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ** ﴾

(النحل:٣٠) .

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٢/١٣ .

وقعت الآية الكريمة مقابلة لعقاب المتكبرين ، قال تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ (النحل:٢٨،٢٩) .

والملحوظ أن أسلوب المدح هنا وقع جواب قسم ، فتأكد المدح على توكيده الذي تؤديه دلالة الأسلوب ، ولا إشكال في الواو هنا ، إذ الجملة واقعة جواب قسم ، معطوفة على جواب قسم ﴿ **وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ** ﴾ (النحل: ٣٠) والواو الأولى استئنافية لتأكيد المدح ، فجاء أسلوب المدح تأكيدًا بعد تأكيد ، وأكد هو الآخر بالقسم ، ثم تأمل إسناد (نعم) إلى دار ، وما فيه من التجوز الدال على شيوع المدح وعمومه المكان كله ، حتى نطق بالخير ، وفي إضافة الفاعل إلى (المتقين) إشعار بعنوان العمل ، تتمة للتقابل مع ضده (مثوى المتكبرين) .

وقد ذكروا نكتة في تسمية الجنة دارًا ، هي أن في التسمية بذلك مدحًا لأهلها(١) ، وإنما دلهم على ذلك ضد المتقين ، فقد علل ابن عاشور لعدم مجيء الدار في جنب المتكبرين ، والتعبير بالمثوى ، بأن في عدم التعبير بالدار وتحقيرًا لهم ، وأنهم ليسوا في جهنم بمنزلة أهل الدار ، بل هم متراصون في النار ، وهم في مثوى أي محل ثواء(٢) ، وهذه طريقة علمائنا في الاستضاءة بالسياق في استكشاف بلاغة الذكر الحكيم .

وقد ذكروا أيضًا نكتة وضع المظهر موضع المضمر ، لأن التعبير للمتقين ، والأصل : ولنعم دارهم ، لأن في الإظهار إشعار بعلية الجزاء ،

---

(١) البحر المحيط ٤٨٧/٥ ، أنوار التنزيل ١٧٦/٣ ، التحرير والتنوير ١٤٣/١٤ .
(٢) التحرير والتنوير ١٤٠/١٤ .



وإن كان ربنا لا تعلل أفعاله ، غير أن هذا الطريق منه ترغيب في التقوى وإتباع المتقين ، تأمل قول البقاعي في هذا الصدد : « ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (النحل:٣٠) أي هي ، مرغبًا في الوصف ، الذي كان سبب حيازتهم لها ، وهو الخوف المنافي لما وصف به الأشرار من الاستكبار ، بإظهاره موضع الإضمار ، وحذف المخصوص بالمدح لتقدم ما يدل عليه ، وهو صالح لتقدير الدنيا ، أي لمن عمل فيها بالتقوى ، ولتقدير الآخرة وهو واضح »[1] .

وقد أجاز أبو السعود أن يكون المخصوص ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ (النحل:٣١)[2] .

أما تقديره بالدنيا عند القول بحذفه ـ كما قال البقاعي ـ فبعيد ، لأن مقابله يأباه وفي تأخير المخصوص تشويق إلى ذكره ، وفي حذف إلماع إلى ذيوعه وشهرته وتعينه والظاهر أن أسلوب المدح يقصد منه زيادة الترغيب في التقوى ، والتحريص عليها .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾

(النساء:٦٩) .

هذه الآية الكريمة تنادي على قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾

(النساء:٥٩) .

---

(١) نظم الدرر ٢٦٣/٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم ١١٠/٥ .



وتتواصل مع قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء:٦٤) .

وقد وقعت الآية الكريمة محل الشاهد عقيب الحث المتحدر في السياق على طاعة الله ـ سبحانه ـ والرسول ﷺ ، وهي تكشف عن جزاء خاص للطائعين وقد ختم بأسلوب المدح ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء:٦٩) **وهذا الأسلوب مع ما فيه من قصد زيادة إيناس الطائعين برفقة المصطفين من خلق الله ، مع ما في أسلوب المدح من ذلك ، فيه مقصد آخر ، وهو زيادة الترغيب في الطاعة** ، وتميز هذا الأسلوب وتفرده ، إنما يرجع للسياق الذي ذكرت لك طرفًا منه ، وبوسعك الرجوع إلى السورة الكريمة لمتابعة السياق من أول السورة الكريمة ، وما فيها من الأوامر الشاقة ، والنواهي القاتلة للذات والمميتة لشهوات النفس .

وما ذكرته من المقصد من الأسلوب منقول عن الأئمة ، قال البيضاوي في (ومن يطع الله ...) **مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق ، وأعظمهم قدرًا)** [1] ووسع الشيخ زادة قوله فقال : « فإنه ـ تعالى ـ أمر بطاعة الله ، وطاعة رسول الله بقوله : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ ثم زيف طريقة المنافقين ، ثم أعاد الأمر بطاعة الرسول بقوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ (النساء:٦٤) ورغب في تلك الطاعة بإيتاء الأجر العظيم ، وهداية الصراط المستقيم بسببها ، **ثم أكد ذلك الترغيب بأن وعد عليها مرافقة أكرم الخلائق** »[2] .

---

(١) أنوار التنزيل ٤٨/٢ ، ٤٩.

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة على البيضاوي ٤٨/٢ ، ٤٩ .

وقد كشف الأئمة عن الغرض بحديثهم عن موقع الجملة الكريمة فقال : (تذييل مقرر لما قبله مؤكد للترغيب والتشويق) [1] وعليه فالواو استئنافية ، والاستئناف هو الألصق بغرض التوكيد . وبهذا نخرج من الخلاف في عطف الإنشاء على الخبر .

ما من ريب أنك تبصر براعة الأئمة في استنطاق دلالة الأساليب بالسياق ، وأن السياق ذو أثر بالغ في تحديد دلالة مقاصد الأساليب .

والظاهر أن (حسن) يراد بها هنا المدح ، ويجري عليها أحكام نعم ، وهي تفيد المدح ، وتتضمن التعجب ، وقد ذهب جماعة إلى أنها هنا تفيد التعجب واستدلوا لذلك بقراءة (حسن) بسكون السين[2] ، لكن دلالتها على المدح ألصق بالسياق للتحدر الذي ذكرته قبل ذلك ، وكأن أسلوب المدح يشكل ذروة الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، ثم إن المدح يتضمن التعجب ، ولا عكس لذا ذكر ابن عاشور إلى أن (حسن) جارية مجرى (نعم) [3] ، وعليه فأولئك فاعل ، وفي تعريفه باسم الإشارة للبعيد تعظيم ، ورفيقًا تمييز ، وفي تأخير المخصوص تشويق له ، وفي حذفه إلماع إلى تعينه ، وأنه قد صار من الذائع المشتهر الذي لا يمارى أنه لا يحظى برفقة أولئك الأخيار إلا الطائعون .

---

(١) إرشاد العقل السليم ١٩٨/٢ ، روح المعاني ٧٨/٥ .
(٢) الكشاف ٥٣١/١ . نظم الدرر ٢٧٧/٢ .
(٣) التحرير والتنوير ١١٦/٥ .

الفصل الثاني

من أسرار أسلوب الذم في الذكر الحكيم

كثر ورود أسلوب الذم في الذكر الحكيم كثرة فاقت ورود أسلوب المدح بأكثر من ثلاثة أضعاف ، وكذلك تشعبت سياقات ورود هذا الأسلوب ، وقد جمعت الآيات المتقاربة لأدنى ملابسة .

أسلوب الذم في سياق الحديث عن جرائم اليهود وقبائحهم

قال تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ (البقرة:٨٨-٩٠) .

سورة البقرة هي أكثر سور الذكر الحكيم كشفًا لفضائح اليهود ، ولا توجد سورة توسعت في فضائحهم كسورة البقرة ، يدانيها في ذلك سورة المائدة ، ومع ذلك ترى أسلوب الذم ورد ثلاث مرات في سورة البقرة في سياق الحديث عن اليهود ، وورد في المائدة خمس مرات ، ملاءمة للسياق في كل .

وقد جاء أسلوب الذم هنا على سبيل الاستئناف لتأكيد الذم ، ولتبشيع جرائمهم فلقد جاء في سياق الحديث عن التحريف والتبديل ، وأنهم كانوا يحرفون كلام الله لقاء دراهم معدودات ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا** ﴾ (البقرة:٧٩) . من بعد قصة البقرة والاستسقاء ، والحديث عن نجاتهم ، وبعثهم بعد الموت إلى آخره مما تبصره في السياق ، والشيء العجيب أنك ترى أن أول أسلوب ذم ورد في الذكر الحكيم ، في شأن اليهود ، فهو تقبيح ما بعده تقبيح .

المهم أن أسلوب الذم جاء في هذا السياق الطويل الذي يعدد مساوئ اليهود ، وقد سبق أسلوب الذم بتكفيرهم « فلعنة الله على الكافرين » وليس بعد اللعن شيء ، وكأن أسلوب الذم جاء من بعد ذلك تأكيدًا لطرد اليهود من رحمة الله ، إذ قد جمعوا كل المذام ، وحازوا كل القبائح . وفي أسلوب الذم أيضًا تسفيه لرأيهم في تحريف كلام الله .

والذي له ولع بالدراسات القرآنية يعلم أن المفسرين عند أول موضع في أي مقصد يرد في الذكر الحكيم ، يراهم تتكاثر أقوالهم ، وتتعدد آراؤهم ، ومن أجل ذلك اختلفوا هنا في (ما) التي في بئس على أقوال متعددة :

أولاً : أن ما هنا نكرة تامة بمعنى الشيء ، وعليه فما هي الفاعل ، وجملة ﴿ **ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ** ﴾ (البقرة: ٩٠) صفة لما ، وأن يكفروا ... هو المخصوص بالذم .

ثانيًا : أن «ما» موصولة ، وهي فاعل (بئس) وجملة ﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ ﴾ (البقرة:٩٠) صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ، و﴿ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:٩٠) المخصوص بالذم ، ويقاربه أن تكون (ما) مصدرية فاعل (بئس) .

ثالثًا : أن «ما» في محل نصب تمييز مفسر لفاعل بئس المضمر ، وجملة ﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ ﴾ (البقرة: ٩٠) صفة له ، و﴿ أَن يَكۡفُرُواْ ... ﴾ هو المخصوص بالذم .

رابعًا : أن بئس مع (ما) شيء واحد مثل (حبذا) ، أي أنها برمتها فعل ، أو أنها فعل وما فاعل .

خامسًا : وهو أغرب الآراء ، أن ما كفت بئس عن العمل ،وهو بعيد ، لأن الفعل لا يكف لقوته ، وإنما ذلك في الحروف[1] .

وقد لحظت أن الخلاف على ذلك في تحديد فاعل بئس ، أما جملة ﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ ﴾ (البقرة: ٩٠) فلا تخرج عن كونها تابعًا ، أما المخصوص بالذم فلا خلاف في أنه ﴿ أَن يَكۡفُرُواْ ﴾ (البقرة: ٩٠) وإنما جاء أسلوب الذم تجاوبًا مع السياق الذي ذكرت بعضه ، وقد سبق في السباق وصفهم بالكفر عدة مرات من ذلك ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٍ﴾ (البقرة:٨٥) وقوله : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ (البقرة:٨٨) وقوله : ﴿ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٨٩) ، وقد جاء المخصوص

---

(١) انظر الكشاف ١/٢٩٦، مفاتيح الغيب ٣/١٨٢، ١٨٣، أنوار التنزيل ١/٣٥٠، إرشاد العقل السليم ١/١٢٩، محيي الدين شيخ زادة ١/٣٥٠، روح المعاني ١/٣٢١ ، ٣٢٢، فتح القدير ١/١٤٥، التحرير والتنوير ١/٦٠٣، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/٣٥٩ .

بالذم امتدادًا لهذا السياق ﴿ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:٩٠) كذلك أيضًا جاءت جملة ﴿ ٱشْتَرَوْاْ ﴾ (البقرة:٩٠) سواء أكانت صلة لما أم صفة لها ، جاءت امتدادًا للسياق أيضًا ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (البقرة:٧٩) وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ ﴾ (البقرة:٨٦) .

بالنظر في هذا السياق تبصر أن أسلوب الذم جاء تجاوبًا مع السياق ، وجاء في هذا الموقع زيادة تأكيد لشناعاتهم وفظائعهم ، وقد جاءت أركان الأسلوب من روح السياق ، ووقع فاعل بئس هنا (ما) وهي متوغلة في الإبهام لتشمل كل ما مضى في السياق من فظائعهم ، أو لأنها أجمع لفظائعهم ، تناسبًا مع بئس التي هي أجمع للمذام ، وقد جاءت جملة الصفة أو الصلة كاشفة عن خيبتهم وبوار صنيعهم ، ألا ترى أن المعنى يدل على أنهم باعوا أنفسهم وارتضوا الكفر ثمنًا لذلك ، فما أذمه بيعًا ، وما أقبحه شراء ، وذكر المخصوص هنا كما ترى ذروة البلاغة حتى يظهر في الأسلوب السلعة والثمن ، وذلك أقوى في التشنيع عليهم ، وأقعد في تقبيحهم ، والأسلوب فوق ما يفيده من التشنيع عليه ، فيه إيحاء بتحذير المؤمنين أن يتبعوا طريقتهم ، أو ينتهجوا نهجهم ، وارتباط أركان الأسلوب بالسياق على ما عرضت لك من شدة الاعتلاق وقوة الصلة .

وفي تأخير المسند إليه (المخصوص) زيادة في التقبيح جاءت من بحث النفس عن هذا الذي يجمع كل المذام ، وذكره هنا مما يؤكد تقبيحه أيضًا .

وقد ذكر البقاعي لطيفة هنا استنبطها من الإظهار في موضع الإضمار في قوله تعالى قبل أسلوب الذم ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٨٩) قال : « ولم يقل فلعنة الله عليهم ، فأظهر في موضع الإضمار تعليقًا

للحكم بالوصف ليعم ، وإشعاراً بصلاح من شاء الله منهم ، ولما استحقوا بهذا وجوه المذام كلها ، وصل به قوله : (بئسما) فأتى بالكلمة الجامعة للمذام»[1] وقد ختم الآية التي سيق فيها أسلوب الذم بقوله : ﴿ **فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ (البقرة:٩٠) أرأيت كيف يصور التعبير تكاثر غضب الله عليهم ، وتراصة وتعاظمه ، فالسياق كله يتظاهر على ذمهم .

ولك أن تقول : إن في تقديم المسند ﴿ **بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ** ﴾ (البقرة: ٩٠) مبادرة بذمهم ، وتعجيلاً لمساءتهم ، وفي وقوع جملة الصلة بالماضي (اشتروا) تنديم لهم وتحسير ، وفي التعبير بالمضارع ﴿ **أَن يَكْفُرُواْ** ﴾ كشف عن إحداثهم كفرا بعد كفر بالرغم من أن البيع لأنفسهم قد تم وانتهى ، وكل ذلك مما يكشف عن فظاعة أفعالهم ، وقبح تصرفاتهم لعنهم الله .
قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (البقرة:٩٣) .

وقعت الآية الكريمة في سياق أسلوب الذم السابق تعديداً لأنماط كفرهم ، وأنماط نقضهم الميثاق ، غير أن هذا الأسلوب يختص عن سابقه ، بأنه مشعر بالتهكم ، وقد جاء ذلك من تسمية صنيعهم هذا إيماناً ﴿ **قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ** ﴾ (البقرة:٩٣) ثم يمعن في التهكم بهم ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (البقرة:٩٣) ، وذلك لأن أسلوب الذم هنا ، وقع عقيب الحديث عن عبادتهم العجل ، ولا أعجب ممن يعبد ما صنعه بيده ، لذا جاء التركيب متظاهراً على التهكم بهم ، وقد اختص هذا السياق بالدلالة على

---

(١) نظم الدرر ١/١٩٥ .



تمكن حب العجل من قلوبهم ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ (البقرة:٩٣) ولم يقع مثل هذا التركيب في الذكر الحكيم ، فكأن أسلوب الذم ببئس التي هي أجمع للمذام جاء متناغمًا مع المسند ﴿ وَأُشْرِبُواْ ﴾ الدال على شدة تمكن العجل من قلوبهم ، فجاء أسلوب الذم المليء بالتهكم تجاوبًا مع هذا السياق .

وقد ذكر العلماء لطيفة هنا يجب ذكرها ، وذلك في نمط الأسلوب ، فأسلوب الذم معلوم أنه يبنى على التفسير بعد الإبهام ، أو الإيضاح بعد الإبهام ، وقد جاء تجاوبًا مع نمط الأسلوب السابق ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ (البقرة:٩٣) .

يقول الشيخ زادة : فإن هذا التعبير يدل على التمكين والرسوخ المستفاد من الظرفية ، وعلى أن فرط حبهم له بلغ إلى حيث صارت صورة العجل متمكنة راسخة في قلوبهم ، غير زائلة عنها ، وإن زالت حقيقته العينية ، وذاته الجسمية ، ولا يخفى أنه أبلغ في الدلالة على إشراب قلوبهم الحب ، ثم إنه لا يخفى أن محل الحب هو القلب، فكان الظاهر أن يقال: وأشربت قلوبهم حب العجل ، إلا أنه سلك طريق الإبهام في التفسير ، حيث أبهم فكان الإشراب ، بإسناده إلى الكل ، فإنه يدل على أن شيئًا ما في الكل أشرب الحب ، وتداخل هو فيه ، إلا أنه لا يدري بخصوصه أي شيء هو ؟ ففسر ذلك الشيء بقوله : (في قلوبهم) ، ولا يخفى أن تبين الشيء وتفصيله بعد الإبهام والإجمال أوقع في النفس وألذ ... هذا ، وقد عدل عن أن يقال : أشرب قلوبهم العجل أي حبه ، وعدل عنه بإسناد الإشراب إلى أنفسهم للمبالغة ، كأنهم أشربوا بجملتهم العجل نفسه »[1].

---

(١) حاشية محيي الدين شيخ زادة على البيضاوي ١/٣٥٤ ، ٣٥٥ .

وقد ذكر علماؤنا ملحظًا لطيفًا أيضًا هو أن الآية الكريمة جاءت إبطالاً لقولهم ﴿ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ (البقرة:٩١) قال ابن عاشور : فأسلوب الذم وقع تذييلاً لأنها تبطل قولهم السالف بشواهد التاريخ ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة:٩١) ... وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ ﴾ (البقرة:٩٢) [١] .

وكشف البقاعي عن المناسبة فقال : « ولما بين ـ سبحانه ـ عظيم كفرهم وعنادهم مع وقاحتهم بادعاء الإيمان ، والاختصاص بالجنان ، أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم على وجه التهكم بهم مؤكدًا لذمهم بالتعبير بما وضع لمجامع الذم ، فقال : قل بئسما... » أي بئس الشيء الذي .... وأوضح هذا التهكم بقوله : « على سبيل الفرض والتشكيك ـ إن كنتم مؤمنين »[٢].

وذلك أنه « أظهر إيمانهم المقطوع بعدمه في مظهر الممكن المفروض، ليتوصل من ذلك إلى تبكيتهم وإفحامهم .... ولهذا أضيف الإيمان إلى ضميرهم ، لإظهار أن الإيمان المذموم هو إيمانهم ـ أي الذي دخله التحريف والاضطراب »[٣].

وقد آثرت نقل نصوص أئمتنا برمتها ففيه غناء وثراء في فقه البيان القرآني وهو كاشف على أن أسلوب الذم جاء مطلبًا للسياق ، والكلام في (ما) هنا كالكلام في أختها[٤] ، والمخصوص بالذم هنا محذوف ، وربما

---

(١) التحرير والتنوير ٦١١/١ .
(٢) نظم الدرر ٢٠٠/١ .
(٣) التحرير والتنوير ٦١٢/١ .
(٤) انظر الكشاف ٢٩٧/١ ، مفاتيح الغيب حج ١٨٨/٣ ، وأنوار التنزيل وزادة عليه ٣٥٥/١ .

يوحي حذفه بفظاعة قبحه ، وقد قدره ابن عاشور[1] (عبادة العجل) ، وعمم غيره في التقدير فقدره : قتل الأنبياء وكذا وكذا[2].

ولعل المقصد من أسلوب الذم هنا تقبيح أفعال اليهود والتهكم بهم وتسفيه رأيهم .

قال تعالى : ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة:١٠٢) .

هذه قبيحة أخرى من أفظع قبائح اليهود ، وهذه الحلقة من الحديث عنهم من اختصاصات سورة البقرة ، وذلك يتناسب ومطلع السورة الكريمة الكاشفة عن أن أعلى صفات المؤمنين الإيمان بالغيب ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ (البقرة:٣) ورأس الإيمان بالغيب أن يسند كله لله ، وفي الاعتقاد بالسحر والتنجيم عكس ذلك .

وقد جاء أسلوب الذم هنا مقترنًا باللام : ﴿ **وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ** ﴾ (البقرة:١٠٢) تناسبا مع قوله سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ** ﴾ (البقرة:١٠٢) فالسياق يجري على لاحب واحد حتى في نسق التركيب ،

---

(١) التحرير والتنوير ٦١٣/١ .

(٢) إرشاد العقل السليم ١٣١/١ ، روح المعاني ٣٢٦/١ .

وقد رأيت في الأسلوب تتابع ثلاث لامات (ولقد ـ لمن ـ لبئس) وقد اختلفوا في الآية اختلافًا كثيرًا .

أولاً : ذكر ابن عاشور أن قوله : ﴿ **وَلَبِئْسَ** ... ﴾ عطف على قوله : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمُواْ** ﴾ عطف إنشاء على خبر ، وعليه فهو لا يرى ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمُواْ** ﴾ جملة قسمية .

ثانيًا : ذكر الكواش وأبو البقاء أن اللام في (لمن) موطئة للقسم ، ورده البيضاوي ، لأن الجملة التي تسد مسد مفعولي علمت لا يجوز أن تكون جملة قسمية .

ثالثًا : عند المولى خسرو أن اللام في (لمن) لام الابتداء ، وهو رأي البيضاوي ، وقد علقت هذه اللام (علم) عن العمل .

رابعًا : ذكر البقاعي أن اللام في (لبئس) لام جواب قسم محذوف والتقدير : والله لبئسما .

خامسًا : يرى الآلوسي أن اللام ابتداء ، ويقول : والمشهور أنها جواب قسم ، والجملة معطوفة على القسمية الأولى[1] .

وقد أبصرنا أن الرأي الأسلم من النقد هو عدها لام الابتداء ، وإن عطفنا عليها جملة الذم كما ذكر ابن عاشور يكون إشكال عطف الإنشاء على الخبر ، فالأسلم أن نقول : الواو استئنافية ، ويكون في **الاستئناف تأكيد لذم السحر والتنفير منه ، وهو مقصد يشع من روح السياق** ، وإنما تكاثرت المؤكدات في هذا السياق ، لما يمكن أن يظهر من بعض المنافع

---

(١) أنوار التنزيل ، وحاشية زادة عليه ١/٣٧٥ ، ٣٧٦ ، إرشاد العقل السليم ١/١٤٠ ، روح المعاني ١/٣٤٦ ، نظم الدرر ١/٢٠٩ ، التحرير والتنوير ١/٦٤٧ .

للسحر ، مما يجري على الإيمان به ، والاعتقاد في مرتكبيه ، ولما كان مظنة ذلك تكاثرت المؤكدات دفعًا لذلك ، وزيادة تنفير من السحر ، وزيادة تقطيع لقبائح اليهود .

وقد جاء فاعل (بئس) هنا (ما) وهي أوغل في الإبهام تناغمًا مع مطلع الآية الكريمة ﴿ **وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ** ﴾ (البقرة:١٠٢) ، والمخصوص بالذم هنا محذوف وتقديره : السحر ، وقد سبق الحديث عن ﴿ **شَرَوۡاْ** ﴾ في الآية قبل السابقة ، وفي تكرره بإزائهم كشف أن اليهود لا هم لهم في الدنيا إلا التكسب ، حتى لو كان على حساب بيعهم أنفسهم ، لقاء أي ثمن .

وفي حذف المخصوص إيحاء بأنهم باعوا أنفسهم دون ثمن ، لأن السحر أوهام وتخييل ووساوس شيطان ، وليس له حقيقة واقعة ، وربما وقع الحذف هنا تلاؤمًا مع طبيعة المسند إليه (المخصوص بالذم) وربما يوحي ذلك بتعينه ، كأنه لا أجمع للمذام إلا السحر ، وأمر ذلك أشهر من أن ينص عليه .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ** ﴾

(آل عمران:١٨٧) .

جاء أسلوب الذم هنا في سياق الكشف عن فضائح اليهود ، في تحريفهم كلام الله ، وإذا ما سمعوا الحديث عن الإنفاق معبرًا عنه بالإقراض قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، وادعوا على الله ـ سبحانه ـ عهدًا لهم لم يكن ، ومجيء أسلوب ذم اليهود في هذا السياق فيه تصبير للمؤمنين على ما سينالهم من الأذى من اليهود ، ألا ترى أنه وقع في سياق الفضائح التي ذكرتها ، ثم جاء بعد قوله ـ سبحانه ـ ﴿ **لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ**

أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٦) ثم جاء مطلع الآية الوارد فيها الذم بـ « إذا » أي ومما يعينكم على الصبر على أذاهم أن تتذكروا جرأتهم على الله ـ سبحانه ـ وتنزيله ، وتبديلهم وتحريفهم لقاء ثمن قليل ، هذا ما تبيح به علاقة تجاور الآي .

والملحوظ هنا أن جملة الصفة أو الصلة جاءت بصيغة الافتعال (يشترون) وهذا مما يختص به موضع الذم في آل عمران ، أما في البقرة فهو (شروا) ولا يوجد هذا التعبير في جنب اليهود في غير السورة الكريمة ، ويبدو أن صيغة الافتعال هنا تتناسب مع سياق اللجاجة الذي سبق أسلوب الذم ، ومن أول قوله تعالى : ﴿ **لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ** ﴾ (آل عمران: ١٨١) وقوله : ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ** ﴾ .

(آل عمران:١٨٣)

ألا تبصر أنه افتعال كله ولجاج كله ، تأمل معي قول البقاعي فإن تحته ما قلته (﴿ **فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾ (آل عمران:١٨٧) أي : لأنه مع فنائه أورثهم العار الدائم ، والنار الباقية ، وعبر عن هذا الأخذ بالشراء ؛ إعلامًا بلجاجهم فيه ، وشبه بصيغة الافتعال على مبالغتهم في اللجاج) [(١)] **وهذا يعني أن المقصد من ورود أسلوب الذم في هذا السياق هو زيادة الكشف عن لجاج اليهود ، وهو مما يعين على الصبر على أذاهم ، وهما مقصدان متعانقان للأسلوب .**

---

(١) نظم الدرر ١٩٥/٢ .



هذا وفي وقوع (ما) فاعلاً لبئس هنا تناسب مع السياق ، إذ تعريفه بالموصولية فيه تقبيح وتحقير لما اشتروا ، ووقوعه بالمضارع فيه استحضار للصورة الماضية ، وفيه أيضًا كشف عن أنهم لا يزالون محدثين لهذا القبح ، وفي حذف المخصوص بالذم هنا مع تأخيره إيلاء كبير عناية للفاعل ، حتى ينصب الذم كله على المشترى كشفًا عن خيبة سعيهم وبوار أفعالهم ، وقد ذكروا أن (ما) هنا يحتمل أن تكون تمييزًا في محل نصب ، وجملة يشترون صفته ، وقيل (ما) مصدرية[1] ، ولا يمتنع أن تكون ما موصولة أيضًا ، وعلى أي حال كل وجه جائز وراءه معنى ليس في الآخر ، وهذا من ثراء التعبير في الذكر الحكيم ، والذي أبصره أيضًا أن جملة الذم وقعت تذييلاً لتأكيد ما مضى من الحديث عن فضائحهم . ولك أن تبصر لطيفة في النظر إلى قوله : ﴿ **يَشْتَرُونَ** ﴾ بإزاء قوله من قبل ﴿ **وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ** ﴾ وقد ذكرت ذلك سلفًا .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ .

(المائدة: ٦٠-٦٢)

سورة المائدة تلي سورة البقرة في فضح اليهود والكشف عن قبائحهم ، والذكر الحكيم في هذا السياق يصعد بيانه في ذمهم أبصر ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ (المائدة: ٦٠) ﴿ **وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ**

(١) إرشاد العقل السليم ٢/١٢٤ ، روح المعاني ٤/١٥٠ .

خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾ (المائدة: ٦٠) بهذا النمط من توكيد الإسناد وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي الكاشف عن أن الكفر ملازم لهم أبدًا ، وكأن السياق شرح وتفصيل بل تعليل لجعلهم قردة وخنازير ، ولكونهم شرًّا مكانًا وأضل عن سواء السبيل ، وترى تصعيد البيان القرآني في السعي إلى ذمهم ظاهرًا كفلق الصبح في إنصاف لبعضهم ، ووصف لهم بما فيهم ﴿ **وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ** ﴾ وهذا غاية في الإنصاف ، ثم يكشف عن تهالكهم في طلب المعاصي بقوله : ﴿ **يُسَٰرِعُونَ** ﴾ فأنت بالتعبير بالمضارع تبصر تدافع القوم وحركتهم النشطة ، وتسابقهم المتهالك إلى ماذا ؟ إلى الإثم والعدوان !! فما أقبحهم قومًا ، وترى الذكر الحكيم في هذا السياق يصطفي من التراكيب ما يكشف عن فظاعة أفعالهم ، وذلك في التخصيص بعد التعميم ، ألا ترى أن السحت من الإثم ، غير أنه « خصه بالذكر مع اندراجه في الإثم للمبالغة في التقبيح »[(١)] و« زيادة في التوبيخ »[(٢)] وأنت تبصر في إضافة الأكل إلى السحت قومًا ملتبسين بأشنع الأشياء ، متهالكين عليها فقد أصبح السحت لهم مطلبًا أعلى ، وسبيلاً أهدى!! وذكر السحت من اختصاصات السورة الكريمة ، فلم يذكر إلا في جنب اليهود ، وفي هذه السورة .

ما ذكرته ليس من موضع الدراسة ببعيد ، وإنما ذكرت ما ذكرت كشفًا عن أن أسلوب الذم يكون ذروة التقبيح وغاية التوبيخ ، وهو ذروة تصعيد البيان القرآني وتبصر ما ذكرته تحت كلام الشيخ البقاعي ـ رحمه الله ـ ورحم كل مشايخنا ـ في عبارة وجيزة وجامعة حيث يقول : « ﴿ **وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ** ﴾ : أي الحرام الذي يستأصل البركة من أصله فيمحقها ، ومنه الرشوة ، وكان هذا دليلاً على كفرهم لأنهم لو كانوا مؤمنين ما أصروا

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣/٥٥ .

(٢) زادة على البيضاوي ٢/١٢٢ .

على شيء من ذلك ، فكيف بجميعه ، فكيف بالمسارعة فيه ، ولذلك استحقوا غاية الذم»[1] وقد نور كلامه ـ رحمه الله ـ أن أسلوب الذم جاء استجابة لمطلب السياق ، وجاء ذروة البيان عن قباحة اليهود ، **والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المقصد من كل ذلك ، فوق التشنيع على اليهود وتقبيحهم ، هو التحذير من متابعتهم وتفظيع ارتكاب الإثم وأكل السحت ، كل ذلك مما يوحي به أسلوب الذم متعانقًا مع السياق القرآني** .

وقد جاء أسلوب الذم هنا مقترنًا بلام جواب القسم مما يضاعف تأكيد التقبيح ، ويعلي نبرة التحذير .

و(ما) إما أن تكون في موضع نصب على التمييز ، وإما أن تكون في موضع رفع فاعل[2] ، والإبهام الذي في ما ، فيه تهويل وتفظيع لصنائعهم ، وفي الجمع بين الماضي والمضارع في جملة الصلة أو الصفة ﴿ **كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ «دلالة استمرارهم»[3] قديمًا وحديثًا في صنائعهم تلك ، وهو يتناسب مع السياق في (يسارعون) و(ترى) قبلها .

والمخصوص بالذم هنا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وفي حذفه إلماع أنه متعين ومتعارف عليه ، واشتهاره أغنى عن ذكره ، وفي ذلك إلماع إلى شيوع ذلك فيهم .

قال تعالى : ﴿ **لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** ﴾ (المائدة:٦٣) .

تلت هذه الآية الكريمة السابقة ؛ كشفًا عن أنها أمة ضل علماؤها ، وناموا عن انتشار الفظائع ، وقد ذكر علماؤنا أن ترك الحسبة أوقع من

---

(١) نظم الدرر ٤٩٥/٢ .
(٢) روح المعاني ١٧٩/٦ .
(٣) إرشاد العقل السليم ٥٥/٣ ، روح المعاني ١٧٩/٦ .

مواقعة المعصية ، لذا خص علماءهم بالذم ، **ويبدو أن الغرض من سوق أسلوب الذم هنا النعي على العلماء توانيهم في النهي عن المنكرات ، وتحذير علماء المسلمين من الثواني في النهي عن المنكرات** ، ولعلم العلماء بعواقب الأمور جاء أسلوب الذم في جنبهم أكثر مبالغة من سابقه ؛ لذا ذكر العلماء أن هذا الأسلوب أبلغ من ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ ، (المائدة: ٦٢) وحجتهم في ذلك أن الصنع يدل على الحذق والتدرب والمهارة[1] وأنه من أجل هذه الدلالة ذم به خواصهم ، والذي أفهمه من قولهم (أبلغ) أي أكثر مبالغة من سابقه ، تلاؤمًا مع السياق ، بحيث لو غوير بينهما لما تلاءم ذلك مع السياق ، غير أن ابن عاشور ذكر أنه خولف في التعبير بين (يصنعون)و(يعملون) تفننا في الأسلوب[2] ولا أرضاه قولا ، والسياق الذي ذكرته شاهد على ذلك .

والكلام في (ما) كالكلام في أختها ، والكلام في الجمع بين الماضي والمضارع في جملة الصلة أو الصفة كالكلام في أختها ، وفي هذا التقارب في التركيبين دلالة على أنها أمة تماثل علماؤها وجهلاؤها في المنكرات ، وكشفا أن الساكت عن المنكر كفاعله ، وأن العلماء قد خصوا بمزيد ذم ، لحملهم العلم الكاشف عن عواقب الأمور ، والكلام في المخصوص هنا كالكلام في سابقه .

قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم**

(١) الكشاف ٦٢٧/١ ، أنوار التنزيل وزادة عليه ١٢٢/٢ ، إرشاد العقل السليم ٥٥/٣ روح المعاني للآلوسي ١٧٩/٦ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٤٨/٦ .

مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٦٥،٦٦) .

سبق في التمهيد بيان أن (ساء) تجري مجرى بئس ، وقد أجراها كثيرون هنا مجرى بئس ، ورجح بعضهم أن تكون للتعجب المراد به في مثل هذا السياق التعجيب ، وقليل منهم من ذهب إلى أنها (ساء) المتصرفة [1].

والراجح أن تكون (ساء) هنا محمولة على (بئس) لأن السياق كله في ذم اليهود ، ودلالة (ساء) على التعجب ليست ببعيدة ، إذ قد اشترطوا في إجرائها مجرى بئس أن تتضمن التعجب ، وقباحتهم في ترك القيام بحق الكتاب عجيبة ، إذ في القيام به كل الخير ، وفي ترك القيام بحقه كل الشر ، فاعجب من قباحة قوم يسعون إلى إضرار أنفسهم .

وجملة الذم واقعة هنا خبر مبتدأ (وكثير منهم) وفي ذلك إنصاف لبعضهم ممن أقام التوراة والإنجيل ، ومجيء (ساء) هنا هو الألصق بالسياق إذ الذم بها ليس على التناهي كما في (بئس) وذلك لأن الحديث لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) على العكس مما مضى ، فلقد كان خاصًّا باليهود ، **ثم إن المقصد من سوق أسلوب الذم هنا تحسير أهل الكتاب وتنديمهم ، وإلهاب المؤمنين على القيام بحق الكتاب** والمناسب لمثل هذا تخفيف نبرة الذم فوق أن في اصطفاء (ساء) تناسبًا أيضًا مع جريان الأسلوب ألا تبصر أنه كرر « لو » **﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ﴾** وفيه ما فيه من التمني ، ومن التحسير ، عامل الجواب **﴿ لَكَفَّرْنَا**

---

(١) انظر الكشاف ٣٥٢/١ ، أنوار التنزيل ١٢٤/٢ ، إرشاد العقل السليم ٥٨/٣ ، روح المعاني ١٨٦/٦ ، نظم الدرر ٥٠٢/٢ .

عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (المائدة:٦٥) وهـذا خـير الآخـرة ، وخير الدنيا كـذلك لمـن يفـوت ﴿ **لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم** ﴾ (المائدة:٦٦) ما من ريب أنك تبصـر أن التنـاهي في الـذم . لا يتناسـب مـع جريان هذا الأسلوب ، وإنما يناسبه ساء التي تفيد الذم ، وتتضمن التعجب .

و(ما) هنا يمكن أن تكون موصولة فاعل ، أو تمييزًا[1] والفاعل مسـتتر مفسر بما بعده وجملة (يعملون) صفة ، وفي التعبير بالمضـارع هنـا فـتح لباب الفرج إذا ما دامـوا مسـتمرين في العمـل السـيئ يمكـن أن يقلعـوا ، فيكـون فـي ذلك ترغيب لهـم للدخول فـي حضـرة الله ، ولـو قـال سـاء ما عملوا لتغير الأمر ، والمخصوص بالذم محذوف إسقاطًا لـه عـن درجـة الاعتبار ، إذ لا يعد عملاً ذلك الذي يغضب الله .

قال تعالى : ﴿ **لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ** ﴾ .

(المائدة:٧٨، ٧٩)

سبقت آية من قبل ذلك في تقبيح تواني العلماء عـن الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر غير أنها كانت مختصة بالربانيين ، والأحبار منهم ، أمـا هذه فعامة فيهم ، والآية الكريمة وقعت تعليلاً للعنهم ، وقد وقـع أسـلوب الذم مستأنفًا تأكيدًا لتقبيح عدم التناهي عن المنكر ، وإلهابًا للمؤمنين على التناهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، هذا هو المقصد من سوق أسـلوب الذم امتدادًا لهذا السياق فيما يظهر .

---

(١) روح المعاني ١٨٦/٦ ، التحرير والتنوير ٢٥٥/٦ .

وقد وقع أسلوب الذم جوابًا للقسم ؛ تأكيدًا للتعجيب من قبيح أفعالهم كما ذكر العلماء[1] ، والقول في (ما) كالقول في أخواتها ، والجمع بين الماضي والمضارع يكشف عن استمرارهم قديمًا وحديثًا في عدم التناهي ، وذلك كله مما يتلاءم وتعليل اللعن ، وقد «أطلق على ترك التناهي لفظ الفعل في قوله ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ (المائدة: ٧٩) مع أنه ترك ، لأن السكوت على المنكر ، لا يخلو من إظهار الرضا به ، والمشاركة فيه»[2] .

والمخصوص بالذم هنا محذوف ، وفي حذفه بعد تأخيره زيادة في تفظيعه ـ وكيف لا يفظع وقد استوجب اللعن ـ وإنما جاء التفظيع من التأكيد على ذمه بتكرر الإسناد إليه ، بما الموصولة مرة ، وبكون المخصوص مبتدأ مؤخرًا مرة أخرى ، وجاء التفظيع أيضًا من الحذف الذي يلمع إلى التعيين أي لا سبب في اللعن إلا ترك التناهي عن المنكر ، وأمر ذلك أشهر من أن ينص عليه .

قال تعالى: ﴿ **تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾ (المائدة: ٨٠) .

هذه نقيصة أخرى ، وفظيعة أخرى من فظائع اليهود ، وهي موالاتهم الكافرين ، وليس هذا منهم بغريب إذ هم يتسارعون إلى ما يغضب الله .

وقد جاء أسلوب الذم هنا جوابًا للقسم المحذوف ، واقترن بلام الجواب ، زيادة تأكيد على تقبيح موالاتهم الكفار ، ويظهر والله أعلم ـ أن المقصد

---

(١) أنوار التنزيل ٢/١٨٢ ، إرشاد العقل السليم ٣/٦٨ ، روح المعاني ٦/٢١٣ .
(٢) التحرير والتنوير ٦/٢٩٤ .

من أسلوب الذم ، هو تقبيح اليهود على موالاتهم الكفار ، وتنفير المؤمنين من موالاة الكفار .

وتبصر أن الأسلوب كشف عن تعمدهم ذلك ومقصدهم له ﴿ **مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ** ﴾ (المائدة: ٨٠) تأمل كيف كشف الأسلوب عن خبث نفوسهم التي تقدم لهم ما يغضب الله ، وتعينهم على ذلك ، والتقديم أيضًا (لهم) يعين على ذلك ويساعد عليه .

والكلام في (ما) سبق تقريره مرات ، وقوله تعالى : ﴿ **أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ** ﴾ (المائدة: ٨٠) هو المخصوص بالذم على الراجح(١) ، ولا يصح أن يعرب بدلاً من (ما) لأن البدل يكون على نية أن يحل محل المبدل منه ، ولا يجوز أن يكون فاعلاً لبئس(٢) .

وقد دل ذكر هذا المخصوص أن الله غضب عليهم غضبًا خاصًّا لموالاتهم الذين كفروا(٣) ، وفي تأخيره زيادة تأكيد على ذمهم وتقبيحهم .

وقد ذكر العلماء أنه لابد من تقدير مضاف للمخصوص ، أي موجب السخط لأن نفس السخط المضاف إلى الباري ـ عز وجل ـ لا يقال له إنه المخصوص بالذم ، وقد جوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ **أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ** ﴾ (المائدة: ٨٠) علة للذم على تقدير لام علة ، (لأن سخط الله عليهم) (٤) .

---

(١) الكشاف ٢/٦٦٧ ، أنوار التنزيل ٢/١٢٨ ، إرشاد العقل السليم ٣/٦٨ ، روح المعاني ٦/٢١٣ ، التحرير والتنوير ٦/٢٩٥ .
(٢) دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/٣٦١ .
(٣) التحرير والتنوير ٦/٢٩٥ .
(٤) زادة على البيضاوي ٢/١٢٨ .

والأسلوب كله متظاهر على إظهار تبجحهم في مبارزة الله ـ جلت قدرته ـ بما يغضبه ، وفي كل ذلك بالطبع إلهاب للمؤمنين على ترك موالاة الكفار ، مهما ظهر منهم من الحب ، ومهما بدا منهم من الفوائد .

قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٧) .

هذا أسوأ مثل ضرب في الذكر الحكيم لمن آمن ثم انسلخ من الإيمان ، وقد ذكروا أنه مثل لبلعم بن باعوراء أحد علماء اليهود ، من أجل ذلك أوردته في سياق ذم اليهود ، وقد ذكر العلماء أن (ساء) هنا جارية مجرى (بئس) وأن (مثلا) تمييز للضمير المستكن في (ساء) وهو فاعل ، وهو مفسر بهذا التمييز « ولابد أن يكون المخصوص بالذم من جنس التمييز ، فاحتاج إلى تقدير حذف إما في التمييز ، أي : ساء أصحاب مثل القوم ، وإما في المخصوص أي : ساء مثلاً مثل القوم »[1] .

وقد ناسب سوء المثل سوء المضروب لهم هذا المثل ، و(ساء) هنا تتناسب والسياق ، لأنه تقبيح متعجب منه ، وساء تفيد الذم ، وتتضمن التعجب ولا أقبح ولا أعجب من رجل عرف الحق وتركه ، وعرف الراحة وأباها ، وطلب التعب .

---

(١) البحر المحيط ٤/٤٢٥ ، ٤٢٦ ، أنوار التنزيل وزادة عليه ٢/٢٨٥ ، إرشاد العقل السليم ٣/٢٨٢ ، روح المعاني ٩/١١٦ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/٣٦٨ ، ٣٦٩ .

هذا وقد كشف البقاعي عن مناسبة أسلوب الذم لما قبله فقال : « ولما ظهر بهذا أن مثل الكلب الذي اكتسب من ممثوله من السوء والقذارة ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى ـ مثل المكذبين بالآيات ، أنتج ذلك قوله ﴿ سَآءَ مَثَلاً ﴾ (الأعراف: ١٧٧) تأكيدًا لذمهم وزجرهم »[1] ويمكن أن آخذ من ذلك **أن المقصد من سوق أسلوب الذم في هذا الموضع فوق أنه التأكيد على تقبيح المكذبين بآيات الله فيه زجر للمؤمنين أيضًا وتحذير لهم من الارتداد** .

وشيء آخر يمكن أن يقال ـ وهو متعانق معه لا متعاند ـ المقصد بيان كمال قبح حال المكذبين ، وذلك من كلام الأئمة في جملة الذم وأنها « استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين ، بعد بيان كونه كحال الكلب »[2] أو هو تشنيع على تشنيع ، وهو من قول ابن عاشور وجملة الذم « مستأنفة لأنها جعلت إنشاء ذم لهم بأن كانوا في حالة شنيعة وظلموا أنفسهم »[3] .

والظاهر أن المخصوص بالذم هنا هو قوله تعالى : ﴿ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ ﴾ (الأعراف:١٧٦) وفي تأخير المسند إليه هنا مبادرة بالذم تعجيلاً بمساءتهم ، وفي ذكره بعد تأخيره تقرير لذمهم وتشنيع عليهم .

قال تعالى : **﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾** (الجمعة:٥) .

---

(١) نظم الدرر ١٥٣/٣ .
(٢) إرشاد العقل السليم ٢٩٢/٣ ، روح المعاني ١١٦/٩ .
(٣) التحرير والتنوير ١٧٩/٩ .

الآية الكريمة قريبة من الآية السابقة لذا ذكرتها في إثرها ، وقد جاء أسلوب الذم هنا عقب تمثيل نادر في الذكر الحكيم ، وهو تمثيلهم بالحمار الذي ينال المشاق من أحمال لا ينتفع بها ، ولم يخل منه كتاب بلاغي ، من بعد ما وسع الإمام عبد القاهر القول فيه ، والملحوظ أن هذين المثلين الشنيعين لم يقعا في الذكر الحكيم إلا مرة واحدة ، وفي جنب علماء اليهود ، **وفي سوقهما كذلك فوق التشنيع على اليهود تحذير بالغ لعلماء المسلمين من التهاون في القيام بحق الكتاب ، ومن ترك التناصح والتناهي عن المنكر** .

والملحوظ أيضًا أن أسلوب الذم جاء كالتعقيب على المثل ، زيادة في التشنيع على علماء اليهود ، فكأن أسلوب الذم هو اللمسة النهائية التي يبلغ بها البيان القرآني الذروة في التشنيع والتقبيح . وقد جاء مقطوعًا عما قبله لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاء ، لفظًا ومعنى ، وقد اختلفوا في المخصوص هنا على قولين : إما أن يكون مذكورا ، وهو قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (الجمعة:٥) وإما أن يكون محذوفًا والتقدير اليهود[1] ، وعلى الأخير يكون الذين وصلته في محل جر صفة للقوم ، والذي أبصره أنه إذا استطيع إبصار المخصوص مذكورًا كان أولى ، وهو هنا واضح وظاهر .

وقد أغرب ابن عاشور حين ذهب إلى أن التركيب هنا لا يحتاج إلى مخصوص محتجًّا بأن الفاعل (مثل القوم) أغنى عنه ، والحصول العلم بأن المذموم هو حال القوم المكذبين[2] ، وما ذكره الشيخ الجليل كائن في كل

(١) أنوار التنزيل وزادة عليه ٤/٤٩٤ ، إرشاد العقل السليم ٨/٢٤٧ ، البحر المحيط ٨/٢٦٧ ، روح المعاني ٢٨/٩٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/٢١٤ .

أسلوب مدح أو ذم ، غير أن كلامه لا وجه له ، وأنت تبصر في الأسلوب مع ذكر المخصوص ، أن الذم توجه مرة إلى المثل نفسه ﴿ **بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ** ﴾ (الجمعة:٥) وإضافة الفاعل إلى القوم جرت الذم إليهم ، ثم جاء المخصوص بعد ذلك فأسند الذم إليه ﴿ **ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ** ﴾ (الجمعة:٥) على تقديره مبتدأ مؤخرًا ، وفي وقوعه موصولاً إيماء إلى وجه الخبر ، وكشف عن سبب التناهي في ذمهم ، وكل هذا يفوت أو كثير منه بالاستغناء عن المخصوص ، فوق أن في تأخير المسند إليه تعجيلاً بمساءتهم ، والبناء كذلك يدل على أنه إذا ما كان المثل على هذه الغاية من الذم ، فكيف بالممثل لهم .

وقد ذكر ابن عاشور المناسبة فقال : (ولما كان المثل الجامع لهما ، وهو وجه الشبه شخصًا مثقلاً ، متعبًا جدًّا لشيء لا نفع له به أصلاً ، فهو ضرر عليه صرف ، لا يدرك ما هو حامله ، غير أنه متعب ولا يدري أصخر هو أم كتب ، أنتج قوله : معبرًا بالأداة التي هي لمجامع الذم ؛ ترهيبًا للآدميين من أن يتهاونوا بشيء من أحكام القرآن ، فيكونوا أسوأ مثلاً من أهل الكتاب ، فيكونوا دون الحمار ، لأن رسولهم ﷺ أعظم ، وكتابهم أعلى وأفخم ـ بئس مثل القوم...) [1] .

وقد أبصرت كيف ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ المقصد من أسلوب الذم في تضاعيف كلامه ، ومثل هذه الدرر ، هي التي تهدي في ميدان البحث البلاغي .

(١) نظم الدرر ٥٩٦/٧ .

أسلوب الذم
في سياق الحديث عن المعبودين من غير الله

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ (الحج:١١-١٣) .

الآيات الكريمة مسوقات في تقبيح المعبودين من غير الله ، كاشفة عن عدم نفعهم عابديهم ، مع أن المرتدين إلى عبادة الأصنام ارتدوا إليها طلبًا للنفع ، لما أصابهم بعض الضر وهم يعبدون الله . فكيف يترك الجاهل بعض الضر إلى كل الضر ، وكيف يترك بعض الخسران في الدنيا ـ فيما يعتقد هو ـ إلى كل الخسران في الدنيا والآخرة .

والملحوظ أن الذكر الحكيم يصعد بيانه ؛ كشفًا عن سوء تفكير المرتدين ، وذلك بتقبيح ما ارتدوا إليه ، فقد نفى في الآية الواقعة قبل أسلوب الذم أن يكون لمعبوديهم من دونه نفع أو ضر ، وتلحظ أنه نفى الضر قبل النفع ؛ إلماعًا إلى أنه معبود مأمون الجانب ، تام العجز إن أوذي لا يرد الإيذاء ، فهو لا ينفع نفسه ، فما أقبحه معبودًا ، وإذا ما كان المعبود عاجزًا قبيحًا كان العابد أعجز وأقبح ، ثم صعد الذكر الحكيم بيانه ، فأثبت له الضرر وقد نفاه من قبل عنه ، ولا تعارض ، لأن الضرر لا يتأتى من المعبود من غير الله ، وإنما يقع على العابد بسببه في الآخرة ، وأفعل التفضيل هنا ليست على بابها ، وإنما دلت على أنه لا نفع له أصلاً ،

وقد جاءت أفعل التفضيل هنا على لغة العرب ، فهم يقولون في الشيء الذي لا يكون : هذا بعيد كما ذكره ابن الجوزي(١) .

وفي الأسلوب توجيه آخر هو أن المقصود رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون إليهم في الشدائد مستصوبين آراءهم ، لأن وصف المولى والعشير لا يليق إلا بالرؤساء ، وقد يراد الأصنام في الموضعين ، إلا أنه أثبت الضر لها مجازًا لأنها سبب الضلال الذي هو سبب عذاب النار ، نظيره ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (إبراهيم:٣٦) ، وأثبت لها النفع بناء على معتقدهم أنها شفعاؤهم عند الله والمراد : يقول الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ، ولا يرى أثر الشفاعة لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير ذلك ، أو أراد يدعو ممن دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ثم قال : لمن ضره بكونه معبودًا أقرب من نفعه بكونه شفيعًا) (٢) .

وكله كلام سديد ، وفي التوجيه الذي ذكره النيسابوري كشف عن أصناف المعبودين من غير الله ، وفي التاريخ ما يدل على ذلك ويرجحه كفرعون ـ لعنه الله ـ مثلاً ، وتكون أفعل التفضيل على بابها ، وقد وقع أسلوب الذم جوابًا لقسم مقدر ، مما يؤكد الذم ، ويزيد التشنيع عليهم ، وقد تناسب بذلك مع السياق ﴿ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ (الحج: ١٣) فقد ناسب التوكيد التوكيد ، وقد ذكروا أن (يدعو) الثانية توكيد للأولى وما بينهما اعتراض(٣) .

وقد جاء فاعل بئس كذلك تناسبًا مع السياق الذي يتحدث عن الضر والنفع ، وإصابة الخير (فهي شر الموالي وشر العشراء ، لأن شأن المولى

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤١١/٥ ، ٤١٢ .
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري بهامش الطبري ٧٢/١٧، ٧٣ .
(٣) زادة على البيضاوي ٣٧٧/٣ .

جلب النفع لمولاه ، وشأن العشير جلب الخير لعشيره ، فإذا تخلف ذلك منهما نادراً كان مذمة وغضاضة ، فأما أن يكون ذلك منه مطرداً فذلك شر الموالي »[1] ومعنى هذا الكلام أن أسلوب الذم جاء ذروة تصعيد البيان القرآني الكشف عن قبح المعبودين من دون الله ، ما يستتبع قبح العابدين ، ويبدو أن المقصد من أسلوب الذم تسفيه المشركين بتقبيح المعبودين من غير الله .

ويبدو أن في تسمية الأصنام والمعبودين من غير الله بالمولى والعشير تهكماً بهم إذ كيف يعتقدونه كذلك وضره أقرب من نفعه .

وقد ذكر البقاعي مناسبة أسلوب الذم لما قبله فقال : « ولما كانت الولاية الكاملة لا تنبغي إلا لمن يكون توقع النفع منه والضر على حد سواء ، لقدرته على كل منهما باختياره ، وكان العشير لا يصلح إلا إن كان مأمون العاقبة ، وكان هذا المدعو إن نظر إليه في جانب الضر وجد غير قادر عليه، أو في جانب النفع فكذلك، وإن فرض توقع نفعه أو ضره ، كان خوف ضره أقرب من رجاء نفعه استحق غاية الذم ، فلذلك استأنف ـ تعالى ـ وصفه ، بقوله معبراً في ذمه بالأداة الموضوعة لمجامع الذم ﴿ **لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ** ﴾ (الحج: ١٣) لكونه ليس مرجو النفع ، كما هو مخشي الضر ، ولبئس العشير ؛ لكونه ليس مأمون الضر ، فهو غير صالح لولاية ولا لعشرة بوجه »[2] .

وقد بني الأسلوب على المقابلة إذا انتقل الحديث من بعد ذلك إلى بيان نصرة الله أولياءه ، وقوبل في نهاية السورة بأسلوب مدح لله ـ عز وعلا ـ متقابل مع أسلوب الذم للمعبودين من دونه ، ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ** ﴾ (الحج:٧٨) ، ومعظم حديث السورة الكريمة

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٦/١٧ .
(٢) نظم الدرر ١٣٨/٥ .

دائر على بيان نصر الله أولياءه ، وخيبة الذين يعبدون من دون الله آلهة ، تلاؤمًا مع مطلعها الذي يتحدث عن الساعة التي بعد الحساب .

والمخصوص بالذم هنا محذوف في الموضعين إسقاطًا له عن درجة الاعتبار ، وقدره البيضاوي : لبئس المولى الناصر ولبئس العشير الصاحب[1] .

ففي تقديم المسند تعجيل بالمساءة ، وفي تأخيره زيادة في تحقيره ، وفي حذفه تلاؤم مع الواقع لكونه ليس ناصرًا ، وليس صاحبًا .

قال تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ** ﴾ (الحج:٧٣) .

جاءت الآية الكريمة عقب آية دلت على أن أشد ما يصيب الكافرين من الأذى هو أن تقرع أسماعهم آيات الله ، إذ هي تتحداهم ، وتظهر أبدًا ضعفهم،وتكشف سوء تفكيرهم،ألا تراهم من غيظهم عند سماع آيات الله تتلى ﴿ **يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا** ﴾ (الحج:٧٢) ، ثم جاء السياق بنمط آخر من التحدي ، وهو آية من كتاب الله الصامت (الكون) بعد عرض آية من كتاب الله الناطق (القرآن) .

وقد اصطفى الذكر الحكيم ما يعده الناس أحقر شيء ويعافونه ، وقد تدرج في التحدي ، فتحداهم أولاً بأن يخلق آلهتهم ذبابًا ، وكأني بالذكر الحكيم تتواصل أطرافه ، فأولئك الكافرون كانوا يسخرون من ضرب البعوضة مثلاً ، فرد ربنا : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا** ﴾ (البقرة:٢٦) فتحداهم أن يخلق آلهتهم ما احتقروه ، فما أحقرهم آلهة إن لم يستطيعوا خلق ما تحتقرونه ، وتلحظ أنه جاء بلن

---

(١) أنوار التنزيل ٣/٣٧٧ .

الزمخشرية التي تفيد تأييد النفي ، أي لن يكون ذلك من آلهتكم ، ألبتة ، وأنت تباصر أن الآية الكريمة ، تنادي على أسلوب الذم السابق في أول السورة الكاشف عن العجز التام للآلهة .

ثم تأمل كيف يصعد القرآن بيانه في الكشف عن ضعفهم ﴿ **وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ** ﴾ (الحج:٧٣) فهم عجزة اجتمعوا أو تفرقوا ، ثم خطا الذكر الحكيم خطوة أبعد في الكشف عن عجزهم ، بأن ما احتقروه فوق أن آلهتهم لا تستطيع خلقه ، لا تستطيع أبدًا استنقاذ ما يأخذه وما يختطفه من أطعمتهم ، أترى عجزاً فوق هذا العجز ، ويستأنس في كشف هذا المعنى ما ذكر من أن أحد العلماء الكافرين ، احتبس ذبابًا في مختبر محكم الغلق ، ثم وضع حبات من السكر ، وانقض الذباب عليها ، وعلى الفور أمسك ذلك العالم بالذباب ، وقام بتشريحة فلم ير للسكر أثرًا ، فقد تحلل في دم الذباب فور التقاطه .

أترى عجزاً بعد هذا الآلهة لا تستطيع حماية عابديها من الذباب فوق أنها لا تستطيع خلق الذباب ، ثم جاء أسلوب الذم في الذروة العليا التي لخصت الضعف المذكور ﴿ **ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ** ﴾ (الحج:٧٣) ، ولم يكن لغير ضعف أن يرد في مثل هذا السياق ، إذ هي الألصق بمقام الكشف عن العجز ، والبيان عن الضعف .

وقد ذكروا أن جملة الذم « تذييل وفذلكة للغرض من التمثيل ، أي ضعف الداعي والمدعو ... أي ضعفتم أنتم في دعوتهم آلهة ، وضعفت الأصنام عن صفات الإله ، وهذه الجملة كلام أرسل مثلاً ، وذلك من بلاغة الكلام»[١] ، ويمكن أن يكون المعنى : ضعف الطالب أي الإله والمطلوب أي الذباب أو ما سلبه الذباب .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٢/١٧ .

وما من ريب بعد ما عرضت لك السياق أنك ترى أن (ضعف) هنا جارية مجرى (بئس) وهي وإن لم تكن من الأفعال المحولة ـ إلا أن الهيئة متحدة ، ولا يمنع ذلك من أن تكون جارية مجرى بئس كما سبق بيانه في التمهيد .

وقد ذكر جماعة أنها هنا للتعجب[1] ، نعم هي تفيد التعجب ، بل شرط في الأفعال المحولة الجارية مجرى بئس أن تتضمن التعجب ، والسياق للكشف عن العجز والتقبيح فهو عجز متعجب منه ، وقبح متعجب منه ، واعتباره خبراً هنا بعيد .

وعلاوة على ما مضى من بيان المعنى لقوله تعالى : ﴿ **ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ** ﴾ (الحج:٧٣) ذكروا معاني أخر منها : أن المراد الصنم ومعبوده ، أو الطالب العابد ، والمطلوب هو الثواب والنفع والمطلوب منه هو الصنم ، إلا أنه أطلق المطلوب على الصنم على طريق الحذف والإيصال ، أو الطالب هو الذباب والمطلوب هو الطيب المسلوب ، والمطلوب منه هو الصنم ، وأطلق عليه على طريق الحذف والإيصال أيضًا[2] ، وكلها معان يحتملها الأسلوب في هذا السياق .

ويبدو أن المقصد من سوق الذم هنا تسفيه المشركين بالكشف عن عجز آلهتهم ، والمخصوص بالذم هنا محذوف يمكن أن يقدر عدة تقديرات بحسب تعدد المعاني السابق ذكرها ، الصنم والمعبود أو الذباب والطيب ... إلخ وقد حذف هنا لتذهب النفس في تقديره كل مذهب ، وفي ذلك إمعان في الكشف عن عجز آلهتهم ، مما يستتبع زيادة تسفيه المشركين .

---

(١) البحر المحيط ٣٩٠/٦ ، روح المعاني ٢٠٢/١٧ .
(٢) أنوار التنزيل وزادة عليه ٣٩٤/٣ ، ٣٩٥ .

أسلوب الذم
في سياق الحديث عن المشركين والكافرين

قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام:٣١) .

سورة الأنعام معظمها حديث عن المشركين ، لذا قالوا : من سره أن يعرف جهل العرب فليقرأ سورة الأنعام ، وقد جاء أسلوب الذم هنا في سياق تنديمهم ، وتحسيرهم ، تأمل ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام:٢٧) ثم يكذبهم القرآن في هذا التمني ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (الأنعام:٢٨) ، ثم عرض السياق مرة أخرى ما يكشف عن تندمهم وتحسرهم ، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٠) .

فالسياق جار كله على أن تحسرهم وتندمهم يوم الحساب سيكون ظاهراً ظهوراً بينًا ، ومع ذلك لو انفكوا من الحساب لعادوا لما نهوا عنه ، لمخافة عقولهم ، وضلال آرائهم ، وقد جاء أسلوب الذم في نهاية آية تصور حسرتهم وتذمهم ، وقد افتتحها بقد التحقيقية ، فقد أصبحت خسارتهم أمراً مقضيًّا ، ثم إذا باغتتهم الساعة لبحوا بالحسرة ، وأقروا بالتفريط حين لا ينفع تحسر ، ولا إقرار وقد قيد حسرتهم بهذا القيد وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) ما أسوأها صورة أتت بهذا القيد تبصر

قومًا فاقت أحمالهم كل قواهم ، تأمل صورة بديعة إذ ترى بها الأوزار حملاً ثقيلاً على الظهور تراها الأعين ، تقيد حركة هؤلاء المكذبين ، وهذا تلاؤم عجيب في البلاغة القرآنية بين ما يكون قيدًا في الواقع وقيدًا في الجملة .

ثم جاء أسلوب الذم بـ (ألا) الاستفتاحية التي تنبه الأفئدة إلى إيلاء مدخولها كبير عناية ، وكل ذلك مما يوحي بتأكيد الذم ، والظاهر أن جملة الذم سيقت لقصد زيادة التحسير والتنديم ، وفي التعبير بلا أوزار زيادة تشنيع عليهم ، وفي هذا القيد (على ظهورهم) كشف عن شدة ثقله ، إذ لا يلجأ إلى حمل الشيء على الظهر إلا إذا اشتد ثقله ، أترى غفلة أبعد من غفلة قوم يظلون حياتهم في إعداد أثقل الأحمال وأسوئها لحملها على ظهورهم في أشد المواقف وأحلك الظروف؟!

وقد جيء بـ (ساء) هنا لأنها ألصق بالسياق الدال على التحسير والتندم حين انتفاء النفع ، وذلك لأنها تمتاز على بئس بتضمنها معنى التعجب بعد دلالتها على الذم ، وإجراء (ساء) مجرى بئس هنا هو الراجح عند كثير من العلماء[(١)] ، وإن كان كثيرون منهم قد أجازوا فيها الأوجه الثلاثة ، أن تكون متصرفة ، وأن تكون للتعجب ، وأن تكون جارية مجرى بئس[(٢)] .

غير أن الملائم لهذا السياق أن تكون (ساء) جارية مجرى بئس ، وكونها للذم يتضمن التعجب أيضًا ، أما عدها متصرفة فبعيد ، وقد رجح البقاعي

---

(١) أنوار التنزيل وزادة عليه ١٦٢/٢ ، إرشاد العقل السليم ١٢٣/٣ ، التحرير والتنوير ١٩٢/٧ .

(٢) الكشاف ١٧/٢ ، أنوار التنزيل ١٦٢/٢ ، البحر المحيط ١٠٧/٤ ، ١٠٨ ، روح المعاني ١٣٣/٧ التحرير والتنوير ١٩٢/٧ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ٣٧١/١٠ .

الأول ، ولم يذكر سواه حيث قال : « ولما كان ذلك الحمل أمرًا لا يبلغ الوصف الذي يحتمله عقولنا كل حقيقة ما هو عليه من البشاعة والثقل ، أشار إلى ذلك بقوله ، جامعًا للمذام ﴿ **أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ** ﴾ (الأنعام:٣١) »[١] .

وقد قدم المسند (ساء ما يزرون) على المسند إليه (المخصوص بالذم) تعجيلاً بالمساءة وفي تأخير المسند إليه تأكيد لذمه وتقبيحه ، وفي حذفه زيادة في تفظيعه ، وتقدير المخصوص (حملهم) .

« فالنظم متظاهر على تأكيد ذم حملهم ، وذلك مما يضاعف من تحسيرهم وتنديمهم ، بل إن موقع الجملة نفسه يفيد التأكيد إذ هو تقرير لما مضى ، لذا قالوا : وقعت جملة الذم هنا تذييلاً مقرراً لما قبله وتكملة له ، و(ألا) حرف استفتاح يفيد التنبيه للعناية بالخبر »[٢] وكونه مقرراً لما قبله ، يؤيد ما حاولت استنباطه من المقصد من أسلوب الذم إذ ما قبله قطب المدار فيه على التندم والتحسير ، وقد جاء أسلوب الذم ذروة البيان عن هذا المقصد .

قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾

(الأنعام:١٣٦) .

سياق الآية يطلب أسلوب الذم ، وبـ (ساء) خاصة ، تأمل تقديم هذا القيد ﴿ **مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ** ﴾ وما فيه من الدلالة على قباحة تفكيرهم ، قوم يقسمون في غير ملكهم ، ويحكمون في غير ما ليس لهم

(١) نظم الدرر ٦٢٦/٢ .
(٢) إرشاد العقل السليم ١٢٣/٣ ، التحرير والتنوير ١٩٢/٧ .

فيه شيء ، فهي قباحة تدعو للعجب ، من أجل ذلك جاءت ساء ، ولم تجئ (بئس) لأن ساء تتضمن التعجب بعد دلالتها على الذم ، ثم تأمل كيف يصعد القرآن بيانه كشفًا عن قبح تفكيرهم ، وعجيب جهلهم ﴿ **فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ** ﴾ (الأنعام:١٣٦) وكيف صار ما للخالق كلأ لشركائهم من دون عكس ، وهو من أقبح الجهل ، وهي قباحة في حق التصرف المزعوم في غير الممتلكات ، ثم جاء أسلوب الذم بـ (ساء) ، تقريرًا لذلك ومن أجل هذا النسق ، قال البقاعي كاشفًا عن أن أسلوب الذم كان ذروة البيان القرآني في الكشف عن سفه المشركين حيث يقول : (ولما بلغ هذا غاية السفه قال : ﴿ **سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ أي حكمهم هذا أسوأ حكم) [1].

ولما كان سياق الآية وجريان الأسلوب يوحيان بالعجب والتقبيح جاءت ساء تناغمًا مع جريان الأسلوب ، وحكمها حكم بئس في الإعراب والفاعل ، والقول في « ما » هنا كالقول في « ما » المصاحبة لبئس ، فيمكن أن تكون ما تمييزًا مفسرًا للفاعل المضمر في ساء ، وتفسير الفاعل بمتأخر هو من خصائص هذا الباب ، وجملة يحكمون صفة ، ويمكن أن تكون مصدرية ، ويمكن أن تكون موصولة ، وفي مجيئها وخصوصيتها في الإبهام تلاؤم مع السياق ، إذ توحي بأن ما مضى ينبغي أن يغيب عن الوجود لشديد سفاهته وعظيم قباحته ، وبالرغم من أن البعض قد ذكر أن (ساء) هنا ليست جارية مجرى بئس ، إلا أن الراجح عند كثير من العلماء إجراؤها مجرى بئس [2] .

---

(١) نظم الدرر ٧٢١/٢ .

(٢) البحر المحيط ٢٢٨/٤ ، حاشية زادة على البيضاوي ٢١١/٢ ، روح المعاني ٣٢/٨ ، التحرير والتنوير ٩٧/٨ ، ٩٨ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ٣٦٨/١٠ .

كما أنك تبصر في تسمية هذه السفاهة حكمًا تهكمًا بهم (لأنهم نصبوا أنفسهم لتعيين الحقوق ، ففصلوا بحكمهم حق الله من حق الأصنام)[1] أضف إلى ذلك ما في التعبير بالمضارع من الدلالة على تكرار حدوث ذلك منهم ، وهو غاية السفه .

المخصوص بالذم هنا مؤخر محذوف وفي تأخيره تعجيل بمساءتهم بتقديم المسند وتأكيد على سفههم بالتأخير ، وتفظيع لحكمهم بالحذف ، ويظهر أن المقصد من سوق أسلوب الذم **هو زيادة تسفيه المشركين** .

قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴾ (التوبة:٦-٩) .

السياق في تقبيح المشركين ، وإلهاب المؤمنين على القسوة عليهم ، وجريان الأسلوب دال على هذا ومرشد إليه ﴿ **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ** ﴾ (التوبة:٧) ﴿ **فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ** ﴾ (التوبة:٧) ثم جاء الاستفهام المجازي مرة ثانية مؤكدًا الاستفهام الأول ذاكرًا العلة ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ** ﴾ (التوبة:٨) ثم تتابع التعليل تتابعًا متصاعدًا ، وكله يتظاهر على إلهاب المؤمنين في معاداة المشركين . ثم جاءت جملة الذم خاتمة هذا التصعيد وذروته ، وقد وقعت

---

(١) التحرير والتنوير ٩٨/٨ .

جملة الذم خبرًا لـ (إن) ، ووقعت جملة إن وما دخلت عليه «ابتدائية ، فصلت عن التي قبلها ليظهر استقلالها بالأخبار ، وأنها لا ينبغي أن تعطف في الكلام ، إذ العطف يجعل الجملة المعطوفة بمنزلة التكملة للمعطوفة عليها ، وافتتحت بحرف التأكيد للاهتمام بهذا الذم لهم»[1] .

والذي يبدو لي **أن المقصد من سوق أسلوب الذم هنا فوق أنه في تقبيح المشركين هو لإلهاب المؤمنين في معاداة المشركين** ، وربما يقول قائل : إن هذا الغرض إنما جاء من السياق على أسلوب الذم ، لا من الأسلوب نفسه ؟ وأقول : هذا صواب ، ولكن هل أسلوب الذم منفصل عن السياق السابق ، أم أنه تقرير لما مضى من قباحتهم ، وإذا ما كان التقرير من دواعي التوكيد ، فالأسلوب يزيد من المعنى الذي قرره السياق ، أم ترى أن تقول إن الأسلوب يفيد تقبيح المشركين فقط ؟ وأقول لك : وهل السياق كله لا يفيد تقبيح المشركين . فالأمر بهذا التعانق الذي تبصر .

والكلام في ساء الذي سبق في دلالتها ترى العلماء[2] يقولونه هنا ، فهي إما أن تكون جارية مجرى (بئس) وهو الألصق بالسياق الذي يتظاهر على إلهاب المؤمنين في معاداة المشركين بتقبيحهم ـ وإما أن تكون منصرفة ، وهو بعيد عن التناغم مع السياق ؛ لأن السياق جار في التقبيح ، وقد اصطفى (ساء) لأنها تتضمن التعجب فوق دلالتها على الذم ، وإنما اصطفيت على بئس لما في السياق من الاستفهام التعجبي أو التعجيبي .

وقد جاء التعبير بـ(ما) تعميمًا لذم كل أعمالهم لأنها أوغل في الإبهام ، وإن كان السياق يفسرها ، وفي الجمع بين الماضي والمضارع في تابع

(١) التحرير والتنوير ١٢٦/١٠ .

(٢) البحر المحيط ١٤/٥ ، إرشاد العقل السليم ٤٥/٤ ، ٤٦ ، روح المعاني ٥٧/١٠ ، التحرير والتنوير ١٢٦/١٠ .

(ما) ﴿ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إشارة إلى « دأبهم على هذه القبائح وتكرر تلك النقائص »[1].

والمخصوص بالذم هنا محذوف بعد تأخيره تعجيلاً بمساءتهم ، وتناسبًا مع مقصد الأسلوب من إلهاب المؤمنين ، وفي تأخيره أيضًا ـ فوق ما جاء من تقديم المسند ـ زيادة تفظيع لأعمالهم تلك ، وفي حذفه إلماع إلى شيوعه واشتهاره .

وقد بين البقاعي ـ رحمه الله ـ مناسبة أسلوب الذم لما قبله فقال : « ولما دل على ما أخبر به من فساد قلوبهم استأنف بيان ما استحقوه من عظيم الذم بقوله : ـ معجبًا منهم ـ ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة:٩) وبين عراقتهم في القبائح وأنها في جبلتهم بذكر الكون... »[2] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (النحل:٢٤،٢٥) .

السياق هنا ليس للتحسير والتنديم كالذي سبق في سورة الأنعام ؛ لذا اختلف المقصد من سوق أسلوب الذم ، وهذا هو الذي أؤكد عليه أن أسلوب الذم المتفق في تركيبه ، يختلف المقصد من سوقه في كل سياق مثل أي أسلوب آخر كالاستفهام وغيره ، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن سوق أسلوب الذم هنا يقصد منه التحذير والتخويف ، هكذا يوحي السياق الذي أحاط بالأسلوب من بين يديه ومن خلفه .

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٦/١٠ .
(٢) نظم الدرر ٢٧٤/٣ .

تأمل ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ (النحل:٢٣) ، وما فيه من تهديدهم وتخويفهم ثم تأمل ما جاء عقب أسلوب الذم بما لا نظير له في الذكر الحكيم بطريق الاستعارة التمثيلية ﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (النحل:٢٦) ثم تأمل ﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ ﴾ (النحل:٢٧) . والمقام لا يسمح بالتوسع أكثر من هذا في لحظ ما في السياق الكريم من التظاهر على تحذيرهم .

هذا وفي السياق ما يطلب (ساء) تأمل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ ﴾ (النحل:٢٤، ٢٥) وكيف دلت اللام على قباحة عقولهم ، وسوء تفكيرهم بما يدعو للعجب ، أولئك قوم يفعلون ما المآل فيه حملهم أوزارهم وأوزارًا مع أوزارهم ، وكأن هذا الحمل الثقيل الخبيث ، أصبح هدفًا لهم يسعون إليه ، هذا ما توحي به الاستعارة في الحرف (اللام) فهو وزر قبيح عجيب ، ومن أجل هذا جيء بـ (ساء) التي تتضمن التعجب بعد إفادتها الذم .

وقد جاء أسلوب الذم بـ ألا الاستفتاحية ؛ إيذانًا بالاهتمام ، وما ذكرته من المقصد يمكن أن تبصره في كلام ابن عاشور في الحديث عن دلالة أداة التنبيه ، فإنما افتتح بها إيذانًا (بالا اهتمام بما تتضمنه للتحذير من الوقوع فيه ، أو الإقلاع عنه)[1] .

وللبقاعي ـ رحمه الله ـ رأي آخر في (ألا) فهو يرى أن الهمزة للإنكار ، وأنها باشرت حرف النفي فصار إثباتًا على أبلغ وجه[2] ، وهو ـ والله ـ

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٣٣ .

(٢) نظم الدرر ٤/٢٥٩ .

وجه ناظر إلى السياق، فتناسب مع اللام في قوله ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ ﴾ التي تكشف عن غباوتهم، وتصورهم باحثين عن هلكتهم متحملين ما يرهقهم.

وكون (ساء) جارية مجرى (بئس) هنا هو الراجح عند العلماء، وإن كانوا قد ذكروا أنها يمكن أن تكون متعدية متصرفة[1]، ولكنك قد أبصرت أن السياق يتظاهر على حملها على بئس والكلام في (ما) كالكلام في أخواتها، وتوغلها في الإبهام. يتلاءم وإرادة شمول شنائعهم وقبائحهم، والمخصوص بالذم محذوف: والتقدير وزرهم هذا وقد قدم المسند تعجيلاً بمساءتهم، وهو الأنسب مع سياق التحذير، وحذف المسند إليه بعد تأخيره تفظيعًا له، وإلماعًا إلى شيوعه.

قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل:٥٦-٥٩).

الملحوظ أن هذا التركيب ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: ٥٩) ورد في سورة الأنعام، وفي سياق يقارب هذا السياق، ومن أجل هذا التقارب ورد التركيب في الموضعين، فهناك قسموا الحرث بين الله وآلهتهم، وقد ورد تلخيص له هنا في صدر السياق ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا

(١) الكشاف ١٧/٢، البحر المحيط ١٠٧/٤، ١٠٨، أنوار التنزيل ١٧٥/٣، إرشاد العقل السليم ١٠٧/٥، الفتوحات الإلهية ٥٥٨/٢، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ٣٧١/١٠.

رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾ (النحل:٥٦) غير أنه هنا اختار أفظع وأقبح ما فعلوه ، وعرض تصرفاتهم نحوه كما تقول الآيات ، وتصرفاتهم قبيحة جدًّا ﴿ **أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ** ﴾ (النحل: ٥٩) . كان ذلك أمرًا شائعًا بينهم ، وهو أقبح ما يكون وأفظعه ، ثم جاء أسلوب الذم مقررًا لما مضى مؤكدًا له ، قال البقاعي : « ولما كان حكمهم هذا بالغًا في القباحة وصفه بما يستحقه ، فقال مؤكدًا لقبحه : ألا ساء ما يحكمون »[1] وهذا كاشف عن تناسب أسلوب الذم مع ما قبله .

والراجح أن تكون (ساء) هنا جارية مجرى (بئس) لتناسبه مع سياق التفظيع والتقبيح ، ويبدو أن المقصد من سوق أسلوب الذم هنا زيادة تقطيع أعمال الجاهلية .

والكلام في (ما) كالكلام في أخواتها فيما سبق ، وقد افتتح أسلوب الذم بأداة التنبيه إيذانًا بالاهتمام بمضمونه ، وقد سمى ما يصنعونه حكمًا ، لتواطئهم عليه ، وتعظم القبيحة باتفاق الناس عليها حتى يصير تركها هو القبيح!!

قال ابن عاشور : « إنما سماه حكمًا لتمالئهم على ذلك ، فلا ينكره الجماعة على الفاعل وكأنه حق للأب »[2] والمخصوص بالذم محذوف ، وفي تقديم المسند على المسند إليه تعجيل بمساءتهم ، وفي تأخير المسند إليه زيادة تفظيع وتقبيح له ، وفي حذفه دلالة على شيوعه ، وغنائه عن النص عليه ، والقبيح إذا بلغ حد الاشتهار المغني عن النص عليه ، كان أفظع ما يكون . فقد تلاءم الحذف والتأخير وتقديم المسند مع مقصد

---

(١) نظم الدرر ٤/٢٨٠ .
(٢) التحرير والتنوير ١٤/١٨٥ .



الأسلوب ، ولا تقل إن الأسلوب بطبيعته يأبى التقديم ، وحذف مخصوصه أكثر من ذكره ، وأقول إنما اصطفاه الذكر الحكيم وسيلة بيانه لما فيه من هذه الإمكانات ، وذلك الثراء .

قال تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(الكهف: ٤، ٥) .

الظاهر أن (كبر) هنا تجري مجرى (بئس) لأن السياق في التشنيع على بعض مشركي العرب الذين ادعوا لله ـ سبحانه ـ ولدًا ، والملحوظ أنه اصطفى (كبر) وفيها تنبيه على عظم ذلك من بين الأفعال كما قال الراغب [١] .

ولشناعة قولهم ذلك رجح العلماء كونها للذم على كونها للتعجب[٢] ، وذلك أن دلالتها على الذم تتضمن التعجب أيضًا ، ولا أقبح ولا أعجب من هذا القول ، لذا وقع هنا استخدام (كبر) الدالة على الذم والمتضمنة التعجب تلاؤمًا مع هذا الفظع والفحش ، ومن أجل السياق أيضًا رجح الزمخشري قراءة النصب في (كلمة) على قراءة الرفع لأن المعنى على قراءة النصب أبلغ وأقوى[٣] .

وفاعل (كبر) هنا محذوف و(كلمة) تمييز مفسر للفاعل المضمر ، والتقدير كبرت مقالتهم كلمة ، وفي حذفه إيماء إلى أن الكلمة ممقوتة

---

(١) المفردات (كبر) .

(٢) البحر المحيط ٦/٩٧ ، أنوار التنزيل وزادة عليه ٣/٢٤٨ ، إرشاد العقل السليم ٥/٢٠٤.

(٣) الكشاف ٢/٧٠٣ .

مذمومة بنفسها ، بل بلغت التناهي في الذم ، فما أذم من يقولها ، بل ما أذم من يؤمن بها ويعتقد بصدقها !!

والمخصوص بالذم محذوف ، وقد أجازوا أن يكون قوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ (الكهف:٥) صفة للمخصوص المحذوف ، وذلك مما يؤذن باستعظام هذه الكلمة ، لأن بعض ما يخطر بالبال لا يجترئ الإنسان على إظهاره باللفظ .

وقد كشف البقاعي عن أن أسلوب الذم جاء ذروة الكشف عن فظاعة قولهم ، بقوله : « ثم هول أمر ذلك بقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ ﴾ أي مقالتهم هذه كلمة ، أي : ما أكبرها من كلمة ، وصور فظاعة اجترائهم على النطق بها ، بقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ (الكهف:٥) »[(١)] .

ويمكن تلخيص كلام ابن عاشور في الكشف عن ثراء هذا التركيب ، فقد ذكر أن أسلوب الذم مستأنف للتشنيع ، وأن جملة الذم مقطوعة عما قبلها لأنها إنشائية ، والأولى خبرية ، وأن كبر مستعملة في التعجب من شناعة هذه الكلمة ، بقرينة المقام ، وقد ذكر أنه من أجل هذا مثلوا بهذه الآية لفعل المحولة التي لمعنى الذم[(٢)] ، ومن كل ما مضى يظهر أن المقصد من أسلوب الذم هنا تفظيع النطق بادعاء الولد لله .

قال تعالى : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ (طه:١٠٠،١٠١) .

وقعت الآية الكريمة في السورة الكريمة عقب قصة اليهود مع العجل وقصة السامري وهذه الحلقة من قصص اليهود من خصائص السورة

(١) نظم الدرر ٤/٤٤٤ .
(٢) التحرير والتنوير ١٥/٢٥٢ .

الكريمة إذ لم ترد قصة السامري في موضع آخر على كثرة ورود قصة موسى ـ عليه السلام ـ وقومه في الذكر الحكيم .

وقد انتقل السياق من الحديث عن السامري إلى الحديث عن القرآن الكريم ﴿ **كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا** ﴾ (طه:٩٩) . ووقع بعد ذلك جملة شرطية ﴿ **مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا** ﴾ (طه:١٠٠) ثم ترى القرآن بالمعنى بعد ذلك ﴿ **خَٰلِدِينَ فِيهِ** ﴾ (طه: ١٠١) أي في حمل هذا الوزر مما يهدد السامعين ، ويحذر المعرضين ، إذ الحمل وثقله والتعذيب المتسبب عنه حين يكون منقطعًا يقدر على تحمله لأن مآله إلى الصرف ، ولكن حين ينبه على خلوده ، يحس بألم عذابه من أول لحظة ؛ ثم خطا النظم الكريم خطوة أعلى بعد الخطوة السابقة بأسلوب الذم ، فهو ليس حملاً ثقيلاً مخلدًا فحسب ، وإنما هو من أذم الأحمال وأقبحها .

والظاهر أن المقصد من ذلك زيادة تهديد وتحذير المعرضين عن ذكر الله من أجل ذلك جاء هذا الأسلوب ، حتى لو كان الإعراض ممن كان حبيب ربه قبلا ، والسامري مثال منصوب على ذلك في السياق الكريم ﴿ **فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ** ﴾ (طه:٩٧) عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة ، كذلك كل معرض عذاب في الدنيا زائل وعذاب في الآخرة خالد .

ومن أجل هذا السياق الذي يكشف عن قبح من كان مع الله ، ثم آتاه الله علما فأعرض عن ذكر ربه فضل وأضل ، من أجل هذا جاء أسلوب الذم بـ(ساء) تعجبًا من قبحه وقبح من سار سيرته .

وقد رجح عند العلماء أن تكون (ساء) هنا جارية مجرى (بئس) على كونها (ساء) المتصرفة ، فقد ذكروا أن إجرائها على معنى (أخذت) يغيث البلاغة ويقعد بالمعنى[١]، وقد ذكر ابن عاشور أن أسلوب الذم حال ثانية[٢] وعليه فالواو واو الحال ، فلا إشكال في مسألة العطف بين الخبر والإنشاء ، والتقدير خالدين ومسوئين،وفاعل ساء هنا محذوف،وكذلك المخصوص، والتقدير : وساء حملهم حملا وزرهم ، والملحوظ هنا تتابع هذين القيدين ﴿ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (طه: ١٠١) فوق أنه أعاد يوم القيامة ، زيادة في تقريره ، إذ هو محل الإنذار والتخويف ووقت الحساب والتعذيب ، وقد قدم لهم إمعانًا في مساءتهم ، وزيادة تنكيل لهم . لذا قال أبو السعود : وقد أعيد ذكر يوم القيامة زيادة في التقرير وتهويلاً للأمر[٣].

وقد ذكروا أن اللام في (لهم) جيء بها « لزيادة تبيين تعلق الذم بحمله ، فاللام لبيان الذين تعلق بهم سوء الحمل »[٤].

وكل هذه الخصائص التركيبية تتناسب والمقصد من الأسلوب المتظاهر على تهديد المعرضين عن ذكر الله ـ عز وعلا ـ ، وقد قدم المسند (وساء...) تعجيلاً بمساءتهم ، وتناسبًا مع المقصد ، وفي تأخير المسند إليه ثم حذفه إلماع إلى الشيوع والاشتهار ، في أنه جمع كل المذام .

قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ (العنكبوت:٤) .

---

(١) أنوار التنزيل ٣٣١/٣ ، نظم الدرر ٤٥/٥ ، إرشاد العقل السليم ٤٠/٦ ، زادة على البيضاوي ٣٣١/٣ ، روح المعاني ٢٥٩/١٦ ، ٣٦٠ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٠٣/١٦ .
(٣) إرشاد العقل السليم ٤٠/٦ .
(٤) التحرير والتنوير ٣٠٣/١٦ .

سبق أسلوب الذم هنا بأسلوبين استفهاميين إنكاريين ﴿ **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ** ... ﴾ ﴿ **أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ** ... ﴾ ثم جاء بعد ذلك أسلوب الذم تقريراً لمعنى الإنكار ، قال ابن عاشور : « وجملة : ساء ما يحكمون » ذم لحسبانهم ذلك وإبطال له ، فهي مقررة لمعنى الإنكار في جملة : أم حسب »[(١)] ومعنى ذلك أن أسلوب الذم يفيد زيادة الإنكار عليهم في اعتقادهم أن يفوتوا الله ، ويرشح لذلك ما ذكره البقاعي رحمه الله : « ولما أنكر هذا عجب ممن يجول ذلك في صدره تعظيمًا لإنكاره ، فقال : (ساء ما يحكمون) أي : ما أسوأ هذا الذي أوقعوا الحكم به لأنفسهم ، لأن أضعفهم عقلاً لا يرضى لعبيده أن يظلم بعضهم بعضًا ، ثم لا ينصف بينهم، فكيف يظنون بنا ما لا يرضونه لأنفسهم »[(٢)] .

وإجراء (ساء) مجرى (بئس) هو الراجح عند العلماء في هذا الموضع ، وإن كانوا قد أجازوا عدها تعجبًا أو متصرفة ، غير أن الوجه الأول هو الراجح عندهم[(٣)] ، واستخدام ساء هنا هو الألصق بالسياق الذي يتظاهر على التعجيب من قبح أفكارهم ، فلم يناسبه إلا (ساء) لدلالتها على الذم وتضمنها التعجب .

والكلام في(ما) كالكلام في أخواتها ، وقد عبر بالمضارع في (يحكمون) إشارة إلى أن ذلك دأبهم وديدنهم ، وفي تقديم المسند تعجيلاً بمساءتهم ، ومسارعة إلى تقبيحهم ، وهو ما يتناسب وزيادة الإنكار عليهم في سوء معتقدهم ، والمخصوص بالذم محذوف إلماعًا إلى اشتهاره ، أي أنه متعارف مشتهر ما يجمع المذام ، وهو ما مضى في السياق .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٠٧ .

(٢) نظم الدرر ٥/٥٣٧ .

(٣) أنوار التنزيل وزادة عليه ٤/٤ ، إرشاد العقل السليم ٧/٢٨ ، روح المعاني ٢٠/١٣٧ ، التحرير والتنوير ٢٠/٢٠٧ .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر:٣٤،٣٥) .

السياق الكريم في ذم فرعون ـ لعنه الله ـ وأسلوب الذم في سياق قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ لم يرد في غير هذا الموضع ، على كثرة ورود قصته ـ عليه السلام ـ في الذكر الحكيم ، وقد سبق في السياق حوار طويل بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون ، وآخر بين مؤمن قوم فرعون وقوم فرعون .

وقد كان الكبر ظاهراً في المحاورة بدون حجة ، تأمل : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ... ﴾ (غافر:٢٥) ثم قال مصعداً غشمه ، ومعلنًا عنفوان ظلمه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ (غافر:٢٦) فلا حديث له إلا القوة والغشم ، ولا حجة له تسانده إلا التكبر والغطرسة ، من أجل ذلك كان جواب موسى عليه السلام ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ (غافر:٢٧) كذا جاء قبل أسلوب الذم ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ (غافر:٣٤) وجاء بعد الأسلوب ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر: ٣٥) تناسبًا مع ما سبق في السياق ، ومع ما جاء بعد ، ألا تراه أمر الملعون هامان» ببناء صرح يطلع عليه إلى إله موسى . وهكذا ترى السياق كله يتظاهر على بيان تكبر فرعون لعنه الله .

والظاهر أن أسلوب الذم قد جاء في سياق كلام مؤمن آل فرعون ، وأنه من كلامه لذا عاد الحديث إلى قول فرعون ، ثم إلى رد المؤمن ، وحديث المؤمن تتظاهر حججه ويقوى سلطانه ، وحديث فرعون يتظاهر كبره ويتعاظم غشمه كلما قويت حجة المؤمن .

والظاهر أن أسلوب الذم ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (غافر:٣٤) وقع خبر الاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ... ﴾ من باب الإخبار بالإنشاء ، وعد هذا الأسلوب ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ أسلوب ذم ، وإجراء (كبر) مجرى (بئس) هو الراجح ، وقد كشف العلماء عن ذلك بقولهم على هذا الأسلوب (كبر مقتًا) «فيه ضرب من التعجب والاستعظام»[1] وهو «تقرير لما أشعر به الكلام من ذمهم ، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام»[2] .

وإنما ذم هذا النوع من الجدال ، لأن «المقصود منه كم فم الحق»[3] وقد ذكر ابن عاشور أيضًا ، أنه يفهم من الموصول وصلته ذم جدالهم ، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان (أتاهم) يقصد هذا القيد (بغير...) وبعد ذلك جاء أسلوب الذم ، «وبهذا تفظيع بالصراحة بعد أن استفيد من صلة الموصول أن جدالهم هو سبب إضلالهم ذلك الإضلال المكين ، فحصل بهذا الاستئناف تقرير فظاعة جدالهم بطريقي الكناية والتصريح»[4] والمقت أشد البغض وفيه كناية عن شدة العقاب ، وهذا القيد (عند الله) فيه تشنيع وتفظيع له ، فالغرض من أسلوب الذم تشنيع وتفظيع الجدال في آيات الله بغير حجة ولا برهان ، والمخصوص بالذم محذوف وكذلك الفاعل تلاؤمًا مع سياق التفظيع .

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية:٢١) .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٧٠ .
(٢) روح المعاني ٢٤/ ٦٨ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٤/ ١٤٣ .
(٤) السابق ٢٤/ ١٤٣ .

هذه قبيحة أخرى من قبائح الكافرين ، تقارب القبيحة السالفة ، فقد ظنوا هناك أن الله لن يقدر عليهم ، وهنا ظنوا أن الأمر مستو بينهم ، وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ويبدو أن أحد الاعتقادين مؤسس على الآخر ، وقد وقع أسلوب الذم هنا في سياق استفهام إنكاري .

واعتقادم التسوية اعتقاد قبيح ، وإيمانهم به إيمان عجيب ، كاشف عن عظيم تكبرهم ، وخبيث طبائعهم ، لذا وقع أسلوب الذم « تذييلاً لما قبله »[(١)] **متضمنًا زيادة الإنكار عليهم في هذا الاعتقاد ، وفيه تهديد للكافرين وتطمين للمؤمنين وإغراء على صالح الأعمال ، ويبدو أن هذا هو المقصد من سوق الأسلوب** ، ويمكن أن يقال بأسلوب موجز الغرض : تطمين المؤمنين ، وتخويف الكافرين .

والقول بأن (ساء) جارية مجرى (بئس) هو الراجح عند العلماء ، وقد ذكروا أن تسمية معتقدهم هذا (حكما) تهكم بهم ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره هذا[(٢)] ، حذف تحقيراً له ، أو حذف إلماعًا إلى اشتهاره ، فجمعه للمذام أشهر من أن ينص عليه ، والكلام في (ما) كالكلام في أخواتها .

وقد كشف البقاعي عن تناسب الأسلوب مع ما قبله فقال : « ولما كان هذا مما لا يرضاه أحد لمن تحت يده ، ولا لغيره ، قال : ـ معبراً بمجمع الذم ـ ﴿ **سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾[(٣)]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٣٥٥ .
(٢) أنوار التنزيل وزادة عليه ٤/٣٢٥ ، إرشاد العقل السليم ٨/٧١ .
(٣) نظم الدرر ٧/١٠٢ .

أسلوب الذم
في سياق الحديث عن المنافقين

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ (المجادلة: ١٤، ١٥) .

المنافقون يشبهون اليهود في كثير من تصرفاتهم ، ومنها ما هو مذكور في هذا الموضع ، إذ هم يتولون غير المؤمنين ، كأنهم يعمدون إلى غضب ربهم عليهم ، ويجعلون غضب الله غرضًا يسعون إليه كاليهود فيما جاء في سورة المائدة ﴿ **تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ** ﴾ (المائدة: ٨٠) .

والسياق هنا يصعد بيانه في ذمهم ﴿ **مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ** ﴾ (المجادلة: ١٤) ﴿ **وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (المجادلة: ١٤) ثم ترى في هذا الوصف الذي أعقب القوم الذين يتولونهم ﴿ **غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم** ﴾ (المجادلة: ١٤) فالتراكيب متصاعدة في تقبيحهم ، ثم جاءت جملة الذم خبراً (لإن) وقد وقعت (إن) ومدخولها ، « موقع التعليل لإعداد العذاب الشديد لهم »[1] ، وما أغنى ربنا عن التعليل ، غير أنه ذكر ما ذكر زيادة في الإنصاف .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة التنفير من موالاة المغضوب عليهم . وكون (ساء) جارية مجرى (بئس) هو الألصق بهذا السياق المتظاهر على تقبيح المنافقين ، وقد جمع بين

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٧/٤٩ بتصرف .

الماضي والمضارع في الجملة التابعة (لإن) ؛ إيذانًا بتكرر ذلك منهم ، ودأبهم عليه قديمًا وحديثًا وهذا أنسب لموقع التعليل . وفي الأسلوب جناس بين (يعلمون) في الآية السابقة على الأسلوب و(يعملون) كشف هذا الجناس عن تعمدهم إغضاب الله .

وقد حذف المخصوص بالذم محذوف بعد تأخيره معاجلة بمساءتهم بتقديم المسند ، وفي حذف المسند إليه إلماع إلى اشتهاره ، أي أن جمع موالاة غير الله للمذام أشهر من أن ينص عليه .

وقد كشف البقاعي عن المناسبة للأسلوب فقال : « ولما أخبر بعذابهم علله بما دل على أنه واقع في أتم مواقعه ، فقال ـ مؤكدًا تقبيحًا على من كان يستحسن أفعالهم ـ (إنهم ساء) أي بلغ الغاية مما يسوء »[(١)] وقد جاءت هنا (ساء) ولم تجئ (بئس) لما تتضمنه الأولى من التعجب ، وما صنعه المنافقون قبح يدعو للعجب ، إذ يطلبون غضب الله بموالاتهم المغضوب عليهم .

قال تعالى : ﴿ **إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ (المنافقون: ١، ٢) .

تلك عادة المنافقين الكذب في الحديث ، والاستهانة بأيمان الله ، فأولئك يشترون بأيمان الله ثمنًا قليلاً . والسياق هنا متقارب من السياق هناك في سورة المجادلة ، إذ قد ذكر هناك أنهم (يحلفون على الكذب وهم يعلمون) ، وقد رجح العلماء أن تكون (ساء) هنا جارية مجرى (بئس)[(٢)] إذ هذا النظر في المعنى هو الألصق بالسياق الذي يتظاهر على

---

(١) نظم الدرر ٥٠٢/٧ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٠/٨ ، نظم الدرر ٦٠٧/٧ ، التحرير والتنوير ٢٣٦/٢٨ .



الكشف عن تعمد المنافقين الكذب متخذين أيمان الله وقاية لهم ؛ ابتغاء الحياة الدنيا ، واستهانة بالله ـ عز وعلا ـ فما أقبحها طريقة ، وما أخبثه نهجًا ، من أجل ذلك جاء أسلوب الذم .

وقد جاء أسلوب الذم خبرًا ومؤكدًا بـ(أن) ، وقطعت جملة (إن) ومدخولها عما قبلها لاختلافهما خبرًا وإنشاء لفظًا معنى ، والقول في (ما) هنا كالقول في أخواتها ، والقول في حذف المخصوص بعد تأخيره ، وتقديم المسند كالقول في الآية السالفة .

وقد كشف البقاعي عن المناسبة لأسلوب الذم فقال: « ولما كان ما أخبر به من حالهم في غاية القباحة ، أنتج قوله : (إنهم ساء) وأكده ، لأن حالهم يعجبهم ، ويعجب كثيرًا ممن قاربهم ﴿ **سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ** ﴾ (المنافقون:٢) أي جبلة وطبعًا »[1] يريد ـ رحمه الله ـ أن يكشف عن سر الجمع بين الماضي والمضارع في (كانوا يعملون) مما يكشف أن ربنا لا يأخذ المذنب بذنب واحد ، وإنما يأخذ من فجر بتكرار تعمد الذنب واستمرائه . والظاهر **أن المقصود من أسلوب الذم هنا زيادة فضح المنافقين والتنفير منهم** .

---

(١) نظم الدرر ٦٠٧/٧ .



أسلوب الذم
في سياق التحذير من اتباع الشيطان

قال تعـالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا** ﴾ (النساء:٣٨) .

الآيات الكريمات في هذا السياق للبخل ، هذه الآية والـتي قبلـها والـتي بعدها ، وكاد البخـل أن يكـون كفـراً كمـا يكشـف سياق الآيـات ﴿ **ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ (النساء:٣٧) حـين تبصـر التـذييل الـذي ختمت به الآية الكريمة تعلم أن البخل يوشك أن يكون كفـراً والآيـة الـتي فيها أسلوب الذم تتناول الذين ينفقـون أمـوالهم ريـاء ، وكأنـه ضـرب مـن البخل إذ هؤلاء الذين يـراءون بالإنفـاق يبتغـون النفـع ، فكـأنهم يمتطـون الإنفاق تجارة ، ولولا فوائد الرياء ما أنفقوا ، هذا ما أبصره في مجيء الآية الكريمة في سياق الحديث عن البخل ، ألا ترى أنه قال بعد ذلك : ﴿ **وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا** ﴾ (النساء:٣٩) .

فكأنهم لا يؤمنون بما ادخره الله للمنفقين من الثواب ، وطريـق الإنفـاق يرصد عليه شـياطين كـثيرون ، إمـا أن يمنعـوا المنفـق الإنفـاق ، وإمـا أن يـدفعوه للريـاء فيفسـدونه عليـه ، مـن أجـل ذلـك قـال ربنـا : ﴿ **وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا** ﴾ (النساء:٣٨) فالمرائي له الشيطان قرن يزين له الريـاء ، ثم جاء أسلوب الذم مؤكدًا لكل ذلك ، منفرًا من البخـل والريـاء ، والـذي

يظهر لي أن المقصد هنا من أسلوب الذم ، زيادة التحذير من البخل والرياء ، ببيان أنه من عمل الشيطان .

وقد رجح أبو حيان أن تكون (ساء) هنا جارية مجرى (بئس) [1] فـ(ساء) هنا تفيد المبالغة في الذم ، وجاء بـ (ساء) ولم يجئ بـ (بئس) ، لتضمن (ساء) التعجب إذ من العجيب أن يتخذ الناس الشيطان قرينًا وصاحبًا ، فناسب هذا المعنى (ساء) .

والملحوظ هنا أن (ساء) اقترنت بالفاء ، وذلك لوقوعها جواب شرط ، وهذا دليل على وجوب استخدامها في الذم ، إذ لو كانت متعدية لما اقترنت بالفاء .

والفاعل هنا ضمير مستتر تقديره هو ، أو يمكن أن يكون التقدير فساء قرينهم قرينا الشيطان[2] . وإنما حذف لتنصب الصورة على مجاورة ساء لقرينا ، مما يوحي بذم القرناء جميعًا إن كانوا بهذا الفساد ، وفي تقديم المسند (ساء) معاجلة بوصفه بالذم تناسبًا مع مقصد التحذير من البخل والرياء ، وفي حذف المخصوص إلماع إلى اشتهاره وتعينه في جمع كل المذام .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا** ﴾ (الكهف: ٥٠) .

السياق هنا يبغض الشيطان إلى ابن آدم بذكر أمر العداوة الأول ، لابن آدم ، وقد سبق أسلوب الذم باستفهام إنكاري تعجبي ، ثم جاء أسلوب الذم

---

(١) البحر المحيط ٢٠٩/٣ .

(٢) زادة على البيضاوي ٣٥/٢ .

مؤكدًا هذا الإنكار ، وقد جاءت جملة الذم « مستأنفة لإنشاء الذم »[1] ، وقد كشف البقاعي عن تناسب أسلوب الذم مع ما قبله فقال : « ولما كان هذا الفعل أجدر شيء بالذم وصل به قوله تعالى : (بئس) »[2] .

« وفاعل (بئس) محذوف ، و(بدلا) تمييز مفسر لاسم بئس المحذوف لقصد الاستغناء عنه بالتمييز عن طريق الإجمال ثم التفصيل »[3] ، وقد ذكروا أن (للظالمين) إما أن تكون حالا من (بدلا) ، وإما أن تكون متعلقة بـ(بئس) [4] ، وفي الكلام خروج على خلاف الظاهر فقد كان أصل الكلام (ببئس لكم بدلا) ، غير أنه أظهر في موضع الإضمار « للإيذان بكمال السخط ، والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح لا يخفى ، وفي ذلك تشهير بهم »[5] . والمخصوص بالذم محذوف وتقدير الكلام : بئس للظالمين بدلا من الله إبليس وذريته[6] .

والظاهر أن في حذف المخصوص إسقاطًا له عن درجة الاعتبار ، وفي تقديم المسند تعجيل بمساءتهم ، **والظاهر أن المراد من سياقة أسلوب الذم ، وزيادة إظهار سخط الله على متبعي الشيطان** ، وفيه أيضًا زيادة تتغير من الشيطان .

(١) التحرير والتنوير ٣٤٢/١٥ .
(٢) نظم الدرر ٤٧٦/٤ .
(٣) التحرير والتنوير ٣٤٢/١٥ .
(٤) إملاء ما من به الرحمن ٥٥/٢ .
(٥) إرشاد العقل السليم ٢٢٨/٥ ، نظم الدرر ٤٧٦/٤ ، روح المعاني ٢٩٥/١٥ ، التحرير والتنوير ٣٤٢/١٥ .
(٦) أنوار التنزيل ٢٦٤/٣ بهامش حاشية زادة .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ (الزخرف:٣٦-٣٨).

ورد أسلوب الذم هنا على لسان الحق عز وعلا ـ حكاية عن متبعي الشيطان وهي طريقة غير طريقة الموضعين السابقين ، فقد كان الذم فيهما من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإذا كان الذم واردًا من القرين للقرين كان أشد وأنكى في التنفير من هذه المقارنة ، وقد سبق أسلوب الذم بأسلوب تمن لا نظير له في الذكر الحكيم ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ (الزخرف:٣٨) أرأيت تمني البعد الذي يكشف عن التحسر والتندم ، وعند ابن عاشور أن الفاء في (فبئس) فاء التفريع حيث قال : (وقوله : ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ (الزخرف:٣٦-٣٨) بعد أن تمنى مفارقته فرَّع عليه ذمًّا ، فالكافر يذم شيطانه الذي كان قرينًا ، ويعرِّض بذلك للتقصي من المؤاخذة ، وإلقاء التبعة على الشيطان الذي أضله .

والمقصود من حكاية هذا تفظيع عواقب هذه المقارنة التي كانت شغف المتقارنين ، وكذلك شأن كل مقارنة على عمل سيئ العاقبة ، وهذا من قبل قوله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف:٦٧) والمقصود : (تحذير الناس من قرين السوء وذم الشياطين ليعافهم الناس)[1].

نوره الشيخ بكلامه هذا إلى المقصد ، وكشف عن تناسب الأسلوب مع السياق بذكر آية الأخلاء ، التي لا نظير لها في الذكر الحكيم في غير هذا الموضع ، وكأن آية التحذير من الشيطان جاءت توكيدًا وبيانًا لطريقة عداوة الأخلاء .

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٥ ، ٢١٤ .

وقد ذكر البقاعي أن الفاء سببية ، وذلك في قوله : (ثم سبب عن هذا التمني قوله ـ جامعًا له أنواع المذام ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ (الزخرف:٣٨)[1] وإنما التناسب في العموم في الأسلوب فلا أعم من بعد المشرقين ، ولا أجمع للمذام من (بئس) .

وعند أبي حيان أن المقصود : المبالغة منه في ذم قرينه إذ كان سبب إيراده النار[2] ، ويمكن أن نخلص من هذا كله **أن المقصد من سوق أسلوب الذم ، تفظيع عواقب مقارنة الشيطان تحذيرًا للناس منها ، وأضيف لمحة أخرى هي أن المقصد زيادة إظهار التندم والتحسر من مقارنة الشيطان** ، وإنما أبصرت ذلك ، من مجيء أسلوب الذم بعد أسلوب التمني الكاشف عن شدة التحسر والتندم ، وعلى أي حال كل ذلك يؤدي إلى التحذير من مقارنة الشيطان .

وفي تقديم المسند ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ (الزخرف:٣٨) تعجيلاً بمساءة الشيطان من قرينه ، والمخصوص بالذم محذوف قدره البيضاوي (أنت)[3] أي فبئس القرين أنت ، وفي حذفه بعد تأخيره مبالغة في إسقاطه عن درجة الاعتبار في أمر المقارنة ، وكشف أن مقارنته كلها كانت ضررًا ولا نفع فيها .

---

(١) نظم الدرر ٢٩/٧ .
(٢) البحر المحيط ١٧/٨ .
(٣) أنوار التنزيل ٢٩٧/٤ .

أسلوب الذم
في سياق التحذير من بعض المعاصي

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ (النساء:٢٢) .

جاء أسلوب الذم في سياق هدم ما كان في الجاهلية ، وقد جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد القرآن بيانه في النهي عن نكاح ما نكحه الآباء من النساء ، وقد جاء بعد النهي جملة مقطوعة عما قبلها لاختلافهما خبراً وإنشاء لفظًا ومعنى ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا ﴾ فهو عند الله فاحشة ، وممقوت عند ذوي المروءات ، وكل ذلك ذم له يتصاعد ، ثم جاء أسلوب الذم بعد ذلك ، بالواو وقد ذكروا أن جملة الذم إما أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، فالواو على ذلك استئنافية ، وإن كانت الواو للعطف فالتقدير واجب أي مقولاً في حقه ساء سبيلا [(١)]، وبهذا يرتفع إشكال العطف بين الخبر والإنشاء .

وأسلوب الذم فيه مبالغة[(٢)] أي : زيادة تحذير من ارتكاب مناكحة ما نكح الآباء من النساء ، وفاعل (ساء) هنا مضمر مفسد بما بعده ، والتقدير ساء السبيل سبيلا وإجراء (ساء) مجرى (بئس) هو الراجح عند العلماء[(٣)] ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره هو أو هذا مدلول عليه بالسياق ، وفي تقديم المسند تعجيلاً بمساءته تناسبًا مع سياق التحذير والتنفير ، وفي حذفه إلماع إلى اشتهاره أي أن جمعه للمذام أشهر من أن ينص عليه لمعرفة الكل به . ولعل في التعبير بالسبيل هنا مجازًا لتصوير

---

(١) إرشاد العقل السليم ١٥٩/٢ .
(٢) البحر المحيط ٢٠٩/٣ .
(٣) أنوار التنزيل وزادة عليه ٢١/٢ ، إرشاد العقل السليم ١٥٩/٢ ، روح المعاني ٢٤٩/٤ .

اشتهار ذلك بينهم في الجاهلية حتى صار طريقًا ونهجًا، وهذا مما يتناسب أيضًا مع سياق التحذير منه .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٢) كأني بالذكر الحكيم ينادي على أن مناكحة الأبناء ما نكح آباؤهم من النساء من أبغض الزنا ؛ لذا كان التعقيب على النهي عنهما متحدًا في الأسلوب ، غير أن توارد الأبناء على نساء آبائهم أنكى وأشد ؛ لذا قال هناك : ﴿ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا ﴾.

والقول في الواو المقارنة لـ(ساء) هنا كالقول في نظيرتها السالفة ، ويبدو أن **المراد من سوق أسلوب الذم هنا زيادة التحذير من الزنا بتفظيعه، والملحوظ** هنا أنه نهى عن المقاربة ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ﴾ ، والنهي عن مقاربة الفحش أبلغ من النهي عنه ، ومن أجل أسلوب المبالغة هذا في النهي جيء بأسلوب الذم تناسبًا معه .

وقد ذكروا أن التعبير عنه بالسبيل يدل على كثرة متعاطيه بالدلالة على سعة منهجه[1] ، وفي التعبير به استعارة حيث استعير السبيل « للفعل الذي يلازمه المرء ويكون طريقًا له وهي استعارة مبنية على استعارة السير للعمل كقوله : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ (طه:٢١) فبنى على استعارة السير للعمل استعارة السبيل له بعلاقة الملازمة »[2] .

وفاعل ساء مضمر مفسر بما بعده ، ولا تقدير كما قالوا : وساء سبيلاً سبيله[3] والقول في تقديم المسند ، وتأخير المسند إليه مع حذفه كالقول في الآية نظيرتها .

---

(١) نظم الدرر ٣٧٨/٤.

(٢) التحرير والتنوير ٩٠/١٥ .

(٣) البحر المحيط ٣٣/٦ ، أنوار التنزيل ٢٢٢/٣ ، إرشاد العقل السليم ١٧٠/٥ ، روح المعاني ٦٧/١٥ .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الحجرات: ١١) .

جاء أسلوب الذم هنا تذييلاً للمنهيات المتقدمة (السخرية ـ اللمز ـ التنابز بالألقاب) ونمط الأسلوب هنا نمط فريد متناسب مع المنهيات السابقة ، لأنه يكثر الوقوع فيها ويستصغرها الواقعون فيها ، وقد جاء أسلوب الذم تذييلاً للمنهيات المتقدمة ، وهو « تعريض قوي بأن ما نهوا عنه فسوق وظلم »[(١)] ، والاسم هو الذكر أي التسمية « والمعنى : بئس الذكر أن يذكر أحد بالفسوق بعد أن وصف بالإيمان »[(٢)] « وإيثار لفظ الاسم هنا من الرشاقة بمكان ، لأن السياق تحذير من ذكر الناس بالأسماء الذميمة ، إذ الألقاب أسماء ، فكان اختيار لفظ الاسم للفسوق مشاكلة معنوية ، ومعنى البعدية في قوله : بعد الإيمان ، بعد الاتصاف بالإيمان »[(٣)] ويؤيد كلامه رحمه الله ـ أن هذا اللفظ (الاسم) لم يرد في غير هذا الموطن في الذكر الحكيم .

وشيء آخر يتناسب مع المقصد من أسلوب الذم ، وأن الاسم الواصف لارتكاب هذه المنهيات جامع للمذام ، فإذا ما كان الاسم جامعًا لكل المذام ، فالموسوم أذم وأقبح ، وكل هذا يتناسب مع ما يستصغره الناس من ارتكاب هذه المنهيات ، **ويكون المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة التحذير والتنفير من ارتكاب السخرية واللمز والتنابز .**

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٩/٢٦ .

(٢) أنوار التنزيل وزادة عليه ٣٧٣/٤ ، إرشاد العقل السليم ١٢٠/٨ ، روح المعاني ١٥٥/٢٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٥٠/٢٦ .

وقد ذكروا أن جملة الذم تعليل للنهي السابق[1] ، وقد كشف البقاعي المناسبة فقال : « ولما كان الإيمان قيد الأوابد (العصيان) وكان النبز والسخرية ، قطعًا لذلك القيد علل بما يؤذن بأنه فسق معبرًا بالكلمة الجامعة المذام تنفيرًا من ذلك فقال : بئس الاسم... » [2] .

وقد ذكروا أن الاسم هو الفاعل ، وذكر بعضهم أنه (الفسوق) [3] ، واستحسن الشيخ الجمل أن يكون هو المخصوص بالذم[4] ، وهو الراجح فيما أبصر ، وفي التقديم تعجيل بذم هذا الاسم (هذا الوصف) ، وتأخير المخصوص يجعله أقعد في المعنى لنيله بعد الطلب .

قال تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ** ﴾ (الصف:٢،٣) .

جاء أسلوب الذم هنا بيانًا لجملة ﴿ **لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ** ﴾ وهذه الجملة ، فيها إنكار على المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون ، ففيها تقبيح لهذا الفعل بالفحوى .

وأسلوب الذم تقبيح لهذا الفعل تصريحًا ، والمقت أشد البغض ، وقد جاء تمييزًا لـ (كبر) ، وفاعل (كبر) محذوف والتقدير كبر المقت مقتًا عند الله ... ﴿ **وَأَن تَقُولُواْ** ... ﴾ هو المخصوص بالذم ، وقد (نظم هذا الكلام بطريقة الإجمال ثم التفصيل بالتمييز **لتهويل هذا الأمر في قلوب السامعين لكون الكثير منهم بمظنة التهاون في الحيطة**) [5] وهذا المذكور هو

---

(١) زادة على البيضاوي ٣٧٣/٤ .
(٢) نظم الدرر ٢٣٣/٧ .
(٣) زادة على البيضاوي ٣٧٣/٤ .
(٤) الفتوحات الإلهية ١٧٨/٤ .
(٥) التحرير والتنوير ١٧٦/٢٨ .

المقصود من إيراد أسلوب الذم في هذا الموضع ، والراجح عند العلماء أن تكون (كبر) هنا جارية مجرى (بئس) ، وقد قدموا إجراءها مجرى بئس على دلالتها على التعجب[١] ، قال أبو السعود في جملة الذم (بيان لغاية قبح ما فعلوه وفرط سماجته ، وكبر من باب (نعم وبئس) ... وقيل : قصد منه التعجب»[٢] .

ويرى البقاعي أن تعظيم وتجريم القول وعدم الفعل فيه رحمة بالمؤمنين قال : « ولما كان ذلك مهلكًا رحم المخاطبين بتعظيمه ، لينجوا أنفسهم بالكف عنه ، فقال : (كبر) فقصد به التعجيب ، وهو تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا في أمر خارج عن نظائره وأشكاله ، وفسر ما قصد منه ، للدلالة على خلوصه في المقت بقوله : (مقتا) أي عظم جدًّا ، وما أعظمه من بغض هو أشد البغض ، وزاد في تشنيعه زيادة في التنفير منه بقوله : ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [٣] .

وقد نبه ابن عاشور على نكتة حذف الفاعل ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ وأن القصد منه زيادة التهويل بإعادة لفظه ولإفادة التأكيد[٤] .

ومعلوم أن في تأخير المسند إليه مزيد تشوق لمعرفته ، بما يجعله بعد نيله أقعد في النفس ، وأدخل في القلب ، فينزجر المؤمن من اقتراب ذلك ، وفي إعادته مع أسلوب الذم ، بعد ذكره مع أسلوب الإنكار مزيد تهويل له يتناسب مع مقصد الزجر عنه والتحذير منه .

(١) الكشاف ٥٢٣/٤ ، أنوار التنزيل وزادة عليه ٤٨٨/٤ ، روح المعاني ٨٤/٢٨ .
(٢) إرشاد العقل السليم ٢٤١/٨ .
(٣) نظم الدرر ٥٧٢/٧ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٧٦/٢٨ .

أسلوب الذم
في سياق تعذيب بعض الغابرين

قال تعالى : ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (الشعراء:١٦٧-١٧٣) .

قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (النمل:٥٤-٥٨) .

السياقان متقاربان ـ كما ترى ـ **والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد من سوق أسلوب الذم في الموضعين زيادة تفظيع مآل المعاندين الكافرين ـ** والراجح عند العلماء في هذين الموضعين(١) ، وقد عاقبهم الله بالمطر بعد ما أصروا على الفاحشة ، بل بعد ما هددوه بإخراجه من قريتهم ، والملحوظ أنه في الموضعين وقع مفعول مطلق ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا** ﴾ أي : أي مطر هذا ، وأي هول ذلك .

---

(١) أنوار التنزيل وزادة عليه ٤٧٨/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٦١/٦ ، روح المعاني ١١٧/١٩ ، نظم الدرر ٣٨٥/٥ ، التحرير والتنوير ١٨١/١٩ .



وقد كشف البقاعي ـ رحمه الله ـ عن المناسبة ، وعن جمال التراكيب فقال : (وأشار إلى سوء الأثر لاستلزامه سوء الفعل الذي نشأ عنه ، وغرابته بقوله (مطرا) أي : وأي مطر ، ولذلك سبب عن قوله : (فساء ...) أي الذين وقطع إنذارنا لهم الإنذار الذي هو الإنذار) [1] .

أي أن مجيء المفعول المطلق (مطرا) أفاد التهويل ، وأسلوب الذم أفاد التفظيع ، ومعلوم أن اللام في (المنذرين) هي لام الجنس أي أن هذا المطر جمع مذام أمطار كل المنذرين ، وفي هذا تناسب مع التفظيع ، وفي التعبير بالمنذرين (تسجيل عليهم بأنهم أنذروا فلم ينذروا) [2] .

وشيء آخر يؤخذ من إسناد (ساء) إلى مطر ، وهو أنه إذا ما كان المطر جامعًا لكل المذام ، فكيف بالممطرين المعاندين ، ما من ريب أنه مطر ساحق ماحق ، (والمخصوص بالذم محذوف ، تقديره : مطرهم) [3] وفي هذه الإضافة زيادة تفظيع فهو مطر خاص بهم مسلط عليهم ، ملازم لهم ، لا يتركهم إلى سواهم ، وفي تقديم المسند تعجيل بذم المطر المستلزم ذم الممطرين بطريق أبلغ ، وفي حذفه بعد تأخيره تفظيع له بالتنبيه على اشتهاره اشتهارًا يغني عن النص عليه .

قال تعالى : ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ** ﴾

(الصافات:١٧٤-١٧٧) .

هذه الآيات في إنذار المشركين وقد جاءت بعد الحديث عن الأمم الغابرة ، وقد وقع أسلوب الذم جوابًا بالشرط ، ﴿ **فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ** ﴾ ،

---

(١) نظم الدرر ٤٣٦/٥ .
(٢) التحرير والتنوير ١٨١/١٩.
(٣) أنوار التنزيل ٤٧٨/٣ .

والشرط وجوابه استعارة تمثيلية مكنية (فقد شبهت هيئة حصول العذاب لهم بعد ما أنذروا به ، فلم يعبأوا بهيئة نزول جيش عدو في ساحتهم ، بعد أن أنذرهم به النذير العريان ، فلم يأخذوا أهبتهم حتى أناخ بهم) [1] وأنت تخال العذاب بالاستعارة جيشًا جرار أقبل بليل ، ثم صبحهم ، وهم نائمون فتغافلهم ، وباغتهم ، والمباغتة بالعذاب عذاب فوق العذاب .

وشيء آخر تلحظه في الإسناد ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ مجاز عقلي بعلاقة الزمانية ، صور لك إحاطة العذاب بهم حيث شمل الزمان كله ، والزمان محيط بهم لا ينفكون عنه .

وإجراء (ساء) مجرى بئس هو الراجح عند العلماء[2] ، وفي إضافة فاعل ساء إلى المنذرين تسجيل عليهم ، ونفي للعذر ، والمخصوص بالذم هنا محذوف ، والتقدير : فساء صباح المنذرين صباحهم ، وفي تقديم المسند تعجيل بالمساءة ، وفي تأخير المسند إليه وحذفه تهويل له ، كأن العذاب لما باغتهم انتفى صباحهم أصلاً . والظاهر أن **المراد من سوق الذم زيادة تهديد المشركين ومن على شاكلتهم من الغافلين اللاهين** . وفيه مع ذلك تطمين للمؤمنين بنصر الله ـ تعالى ـ لهم ، وتأييدهم وغلبتهم أعداءهم .

(١) البيضاوي وزادة عليه ١٧٠/٤ ، التحرير والتنوير ١٩٧/٢٣ ، ١٩٨ .
(٢) البيضاوي وزادة عليه ١٧٠/٤، إرشاد العقل السليم ٢٠٥/٧ ، نظم الدرر ٣٥٣/٦ ، روح المعاني ١٥٧/٢٣ ، التحرير والتنوير ١٩٧/٢٣ ، ١٩٨ .



أسلوب الذم
في سياق الحديث عن عقاب الآخرة

هذا السياق هو أكثر السياقات التي ورد فيها أسلوب الذم في الذكر الحكيم وقد ورد أسلوب الذم في ثمانية وعشرين موضعًا ، ثلاثة وعشرون موضعًا كانت لـ (بئس) ، وخمسة مواضع كانت لـ (ساء) ، وكلها وقعت عقب الحديث عن ذكر جهنم ، أو النار ، وتنوع هذا العقاب بتنوع أصحابه ، فتارة يكون للمشركين وتارة يكون للمنافقين ، وأخرى يكون لليهود ، أو لتحذير المؤمنين من ارتكاب بعض المعاصي .

وقع ذم جهنم بأنها بئس المصير في أحد عشر موضعًا بـ(بئس) ، عشرة منها اقترنت بالواو منها موضع واحد اقترن بلام القسم ، ووقع موضع آخر مقترنًا بالفاء ، ووقع ذمها بأنها ساءت مصيراً في ثلاثة مواضع اقترنت بالواو فيها كلها .

ووقع ذم جهنم بأنها (بئس المهاد) في أربعة مواضع ثلاثة منها اقترنت بالواو فيها موضع واحد اقترن بلام القسم ، وموضع آخر اقترن بالفاء .

ووقع ذم جهنم بأنها (بئس مثوى المتكبرين) في ثلاثة مواضع اقترنت كلها بالفاء واقترن موضع منها بلام القسم بعد الفاء .

ووقع ذم جهنم بأنها (بئس مثوى الظالمين) في موضع واحد ، كما وقع ذمها بأنها (بئس الورد المورود) في موضع واحد ، وبأنها (بئس الرفد المرفود) في موضع واحد وبأنها (ساءت مرتفقا في موضع واحد) وبأنها (ساءت مستقر ومقاما) في موضع واحد وبأنها (بئس القرار) في موضعين اقترن أحدهما بالواو والآخر بالفاء .

وقد عرضت هذا الاستقرار التام حتى تظهر مشقة على اختصاص كل سياق بما ورد فيها ، ومحاولة التعليل البلاغي للفارقات الدقيقة بين هذه الأساليب ، فإن وفقنا الله على شيء منها فذاك عطاء لا يوازن ولا يقادر قدره وإلا فمن عجزي وتقصيري .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ (البقرة:١٢٦) .

يمكن إجمال عدة أمور ذكرها العلماء في هذا الأسلوب (وبئس المصير) أو ما يقاربه تغني عن ذكرها مرة أخرى :

أولاً : تأولوا الواو المقترنة بهذا الأسلوب بأنها واو الاعتراض أو الحال ، وإذا كانت المعطوفة قالوا بتقدير محذوف ليتسق العطف .

ثانيًا : أنهم ذكروا أن هذا الأسلوب تذييل ، أو اعتراض تذييلي .

ثالثًا : أنهم ذكروا أن المخصوص بالذم محذوف في كل هذه المواضع .

رابعًا : أن المصير إما أن يكون اسم مكان وإما أن يكون مصدر ، وعلى الأخير يكون المعنى وبئست الصيرورة صيرورته إلى العذاب .

خامسًا : أنهم فرقوا بين المصير والمرجع ، بأن المصير يقتضي مخالفة ما صار إليه من جهنم لما كان عليه في الدنيا لأن الصيرورة تقتضي الانتقال من حال إلى حال أخرى كصار الطين خزفًا ، والمرجع انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها ، كقولك : مرجع ابن آدم إلى التراب[1] ،

---

(١) ما ذكرته مستخلص مما كتبه الأئمة في مواطن متعددة انظر أنوار التنزيل ٣٤٣/٢، نظم الدرر ٧٠/٨، ٧١، إرشاد العقل السليم ١٥٩/١، ١٠٦/٢، ٨٣/٤، ١٩٣/٦، زادة على البيضاوي ٤٣٧/٣، روح المعاني ٣٨٣/١، ١١٢/٤، ١٢٦/٥، ١٣٨/١٠، ٢٠٠/١٧، ٢٠٩/١٨، ١٧٩/٢٧، التحرير والتنوير ٧١٧/١، ٢٦٧/١٠، ٣٨٩/٢٧ ، ٢٧٨/٢٨ ، ٢٣/٢٩ .

والمآل إذا ما كان مجهولاً ومرعبًا كان ألصق بمقام الزجر والتهديد ، ويكون هذا الأسلوب واقعًا موقع التذييل ، يدل على أنه جاء لتأكيد معنى سبقه ، وهذا ما يجعل لكل موضع لهذا الأسلوب فائدة بلاغية تتناسب والسياق الذي سبقه ، وهذا يعني أن القرآن لا يسعى بتراكيبه إلى الذم أو المدح من أجل الذم أو المدح ، وإنما من أجل هدف ومقصد يؤكده أسلوب المدح أو الذم ، وإلا ما كرر (وبئس المصير) عدة مرات كما هو واضح هنا .

المهم أن ما ذكره الأئمة وجمعته في هذا الموضع يستغنى بذكره هنا عن ذكره في المواضع المتقاربة ، ويبقى بعد ذلك محاولة التقاط سر للمقصد من سوق أسلوب الذم في كل موضع .

جاء أسلوب الذم في الآية الكريمة في سياق حكاية دعاء سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه ، أن يجعل البلد آمنًا ، وأن يرزق أهله من الثمرات ، والظاهر أن الكلام بعد ذلك لله ، لا من تمام دعاء سيدنا إبراهيم ، على الظاهر ﴿ **قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلاً ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ** ﴾ (البقرة:١٢٦) وهو من أشد الوعيد ، وألذع التهديد ، إذ هو تحذير للكافرين ، ثم جاء أسلوب الذم على سبيل التذييل ﴿ **وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾ (البقرة:١٢٦) زيادة في التهديد ، وتأكيدًا للتحذير والتعبير بالمصير هنا متناسب مع سياق التهديد ، كما يلائمه أيضًا حذف المخصوص ، وقد قدروه ضميراً ، أو العذاب ، وقد ترك القرآن العظيم ذكر المخصوص زيادة في التهويل ، وإمعانًا في التحذير ، فالمصير مجهول مخيف والمخصوص بالذم محذوف من بعد تأخيره ، وتقديم المسند تعجيلاً بمساءتهم .

قال تعالى : ﴿ **أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾ (آل عمران:١٦٢) .



الآية الكريمة وردت في سياق الحديث عن الجهاد في سبيل الله ، وقد أرجف المنافقون وجدوا في تثبيط المؤمنين عن الخروج ، تأمل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (آل عمران:١٥٦) وقد تحرر السياق تحررًا كاشفًا عن المآل الحسن للمؤمنين المتبعين أمر الله ، لعلمهم أن فيه رضوانه .

ثم جاءت الآية الكريمة ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ ﴾ (آل عمران:١٦٢) والكلام مبني على الإيجاز وتقدير المعنى أفمن اتبع رضوان الله فرضى عنه كمن باء بسخط الله فغضب عليه ، وإنما أكد على جانب المغضوب عليه ، بعدة أشياء المحذوف ، والإخبار لما له والتأكيد عليه ، لأن المؤمن حسبه من ربه الرضا ، فإذا رضى عنه الله نال كل خير ، وخلاصة القول أن الأمر مبني هنا على انتفاء التساوي بين الصنفين ، وقد جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد القرآن بيانه في التأكيد على دحر المغضوب عليه ﴿ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وقيد (من الله) يزيد في التهديد ، ﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ ﴾ تعبير فيه من التهديد ما يخلع القلب ، فإن الإنسان إذا كان في السجن فأمله في الخروج يخفف آلامه ، فماذا إذا صارت له جهنم مأوى مخلد فيه ، فقد ذكر السبب أولا وهو إغضابه ربه ، ثم ذكر الجزاء ، ثم أكد على هول هذا الجزاء ، فوقع أسلوب الذم تأكيدًا لانتفاء تساوي المغضوب عليهم ، بالمرضي عنهم ، وفيه من زيادة التهديد ما فيه . والكلام في التقديم وحذف المخصوص والتعبير بالمصير سبق الحديث عنه ، ويرشح لما استنبطت في ذكرا المقصد أن الآية التي تلت

أسلوب الذم هي قوله تعالى : ﴿ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:١٦٣) وكأنها تأكيد لانتفاء التساوي .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (الأنفال:١٥،١٦).

معلوم أن سورة الأنفال بنيت على غزوة بدر ، وقد جاء أسلوب الذم في سياق النهي عن التولي عند الزحف ، وقد جاء الأسلوب مصعدًا بيانه في الكشف عن عقوبة من يولي دبره عند الزحف ﴿ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال:١٦) ﴿ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ ﴾ ﴿ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ كما تبصر جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد الذكر الحكيم بيانه في التحذير من التولي عند الزحف ، وموقع التذييل ينبئ بذلك ، وكأن في هذا التركيب إشارة إلى أن التولي عند الزحف أجمع المعاصي للمذام ، لما فيه من إعطاء الدنية في الدين والعرض والوطن . ويمكن القول بأن المقصود من أسلوب الذم زيادة التحذير من التولي عند الزحف . فإن الغرض من أسلوب الذم إنما يستنبط من السياق لموقعه الذي ذكرته سلفًا .

والكلام في تقديم المسند وتأخير المسند إليه وحذف المخصوص قد مضى .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (التوبة:٧٣) ، (التحريم:٩).

الآيتان الكريمتان وردتا في هذين الموضعين من الذكر الحكيم ، وهما كما ترى في الأمر بجهاد المنافقين والإغلاظ عليهم ، ومعلوم أن سورة التوبة فضحت المنافقين لذا يسميها أهل العلم بالفاضحة والمشقشقة

والعاثرة ، والحافرة وأسماء أخرى كثيرة ، وسورتا التوبة والتحريم مدنيتان ، ومجيء الآية الكريمة في سورة التوبة لا إشكال في التقاط مناسبته ، أما مجيئها في التحريم فيبدو أن الذي طلبها الحديث عن اتباع المؤمنين نور الله ، وأنهم كما اتبعوه في الدنيا فأضاء لهم ، فسيضيء لهم يوم القيامة ، ﴿ **يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا** ﴾ (التحريم:٨) ، فذكر المنافقين بعد ذلك جمعًا بين الضدين ، إذ المنافقون عرفوا نور الله ، لكنهم لم يتبعوه الظاهر أن هذا هو المناسبة فيما أبصر .

ويبدو أن المراد من سوق أسلوب الذم في الموضعين زيادة التأكيد على الأمر بجهاد المنافقين والكفار ، أو زيادة تأكيد خسرانهم في الدارين . تأمل (جاهد واغلظ) لأنهم خاسرون مطبوع على قلوبهم ، وذكر مآلهم في الآخرة مما يدفع إلى شدة مجاهدتهم ويؤكد عليها ، إذ هو إخبار له ﷺ بأنهم مصرون على الكفر والنفاق .

وقد ذكر ابن عاشور في آية التوبة أن الجمع بين (المأوى والمصير) ليس وراءه إلا التفنن[1] ولا أرى الكلام بني على التصعيد ، كما ينبئ به موقع أسلوب الذم ، وفي الدلالة اللغوية فرق كما ترى ، فهناك فرق بين المأوى والمصير وفي حذف المخصوص تهويل وتخويف يتناسب وسوق أسلوب الذم .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾

(الحج:٧٢) .

(١) التحرير والتنوير ٢٦٧/١٠ .



السياق هنا في إغاظة الكافرين ، فإذا ما كانت آيات الله حين تتلى عليهم تغيظهم ـ والغيظ عذاب ـ فأمعن في إغاظتهم ﴿ **قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ** ﴾ (الحج:٧٢) وحاشا أن يكون كلام الله وآياته شرًّا ، ولكن الخطاب هنا للكافرين فآيات الله عليهم شر مستطير ، ثم ذكر أنه ﴿ **وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ (الحج:٧٢) ثم جاء أسلوب الذم زيادة في إغاظتهم ، وزيادة في تهديدهم ، وهما مقصدان متعانقان لا متعاندان ويمكن الجمع بينهما بقولنا : زد في إغاظتهم بزيادة تهديدهم .

قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ (الحديد:١٣-١٥) .

جاء الحديث عن المنافقين مقابلاً للحديث عن المؤمنين ، كاشفًا عن خيبة المنافقين وبوار سعيهم ، وقد جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد القرآن بيانه في الكشف عن خيبتهم ، تنفيراً من النفاق ، وتهديدًا للمنافقين ، ولما طال الحديث عنه في الكشف عن خيبة مآلهم زاد التصعيد ، فقد شاهدوا نور المؤمنين في الآخرة وحرموا الانتفاع به ، ثم ضاعف القرآن من حسرتهم ، فضرب عليهم سوراً ، والحرمان من الشيء بعد إبصاره أشد على النفس من حرمانها منه دون رؤيته ، وناهيك بالحال يوم القيامة ؛ تذكيراً لهم بمعرفتهم الإسلام والإعراض عنه في الدنيا ، ثم بكتهم المؤمنون حين ذكروهم بمعيتهم ، ثم تأمل هذا التحسير (فاليوم) وما أدراك

ما اليوم؟ لا يؤخذ منكم فدية ، هذه عقوبة ، ثم قرنهم بالذين كفروا ﴿ **وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ (الحديد: ١٥) وهذه عقوبة أخرى بعد العقوبات السابقة ، ﴿ **مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ** ﴾ عقوبة أعلى ، ﴿ **هِيَ مَوْلَىٰكُمْ** ﴾ عقوبة أعلى ، وفيها تهكم كما ترى ، ولم يرد هذا التعبير في المواضع الأخرى ، ثم جاء التذييل ﴿ **وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ مؤكدًا على كل ما مضى ، **زيادة في إظهار خيبتهم في الآخرة ، تهييجًا لهم لترك النفاق ، وتأكيدًا على رضا الله على المؤمنين ،** هذا المقصد من أسلوب الذم فيما أرى .

وقد كان ما اختص به هذا الموضع ﴿ **هِيَ مَوْلَىٰكُمْ** ﴾ مثيرًا انتباه الشيخ البقاعي ، فهداه هذا الاختصاص إلى إبصار محذوف يزيد من ترهيب المقصد حيث قال : (ولما كان التقدير : فبئس المولى هي عطف عليه قوله : وبئس المصير) [1] .

وقد ترك الذكر الحكيم المخصوص قصدًا إلى تهويله فوق التهويل المذكور . وقد أبصرت تصعيد القرآن بيانه ، وكيف تراكبت وتواكبت أنماط التهديد حتى ختمت بأسلوبي ذم على كلام البقاعي ـ وهو ملحظ لطيف ، وفي الأسلوب الأول تهكم كما تعلم ، إذ المنتظر من المولى النصرة ، وهل لجهنم من نصرة للمنافقين ؟!

قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ (التغابن: ٩، ١٠).

---

(١) نظم الدرر ٧/٤٤٧ .

جاءت الآيات الكريمات ردًّا على زعم الكافرين بأنهم لن يبعثوا ، يقصدون من إنكار البعث إنكار الحساب ، فرد الذكر الحكيم عليهم ردًّا بليغًا ﴿ **زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ** ﴾ (التغابن:٧) فرد عليهم بأسلوب مؤكد بليغ يتناسب وإنكارهم ، ثم انتقل الحديث بعد ذلك إلى يوم الجمع ، ولم يذكر يوم الجمع إلا هنا وفي سورة الشورى (الآية:٧) وفي سياق إنذار المشركين ، وفرع على ذكر يوم الجمع تصنيف الناس في الحساب ، فذكر المؤمنين أولا ، وذكر أنه يدخل المؤمن الصالح ﴿ **جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا** ﴾ (التغابن:٩) فظهر أثر السياق في إضافة قيد اختص به سياق أسلوب الذم في هذه السورة الكريمة دون بقية المواضع الأربعة عشر وهو « خالدين فيها » بعد الكشف عن أنهم أصحاب النار ، وأستطيع القول بعد كشف السياق السريع أن المقصد من سوق أسلوب الذم : هو زيادة التأكيد على البعث والحساب ، علاوة على زيادة تهديد المنكرين للبعث .

وقد ذكر ابن عاشور أن جملة ﴿ **وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾ (التغابن:١٠) اعتراض تذييلي لزيادة تهويل الوعيد[1] ، ولا يتعاند معه ما ذكرته ، وإنما يتضامنان ، وسأسوق هنا كلامًا للشيخ البقاعي في الكشف عن تصعيد القرآن بيانه ، وما في ذلك من التهديد والوعيد حيث أبصر هذه التراكيب (أولئك أصحاب النار ـ خالدين فيها ـ وبئس المصير) فنظر إلى الصحبة ، ثم الخلود ، ثم ذم مكان هذا الخلود وتلك الصحبة فقال : (ولما كان السجن إذا رجى الخلاص منه ، قلل من خوف داخله ، وكان التعبير

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٨/٢٨ .

بالصحبة مشعراً بالدوام المقطع للقلوب ، لأنه مؤيس من الخلاص أكده بقوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ (التغابن:١٠) وزاد في الإرهاب منها بقوله : ـ مشيراً إلى مضار القلب بعد ذكر مضار القالب ـ وبئس المصير ، أي جمعت المذام كلها للصيرورة إليها ، فكيف بكونها على وجه الإقامة زمنًا طويلاً ، فكيف إذا كان على وجه الخلود) [١] .

وهذا التصعيد من خصائص السورة الكريمة في سياق أسلوب الذم ، تناسبًا مع ما سبق من الزعم المؤكد من المشركين على إنكار البعث ، وخلاصة قول الشيخ البقاعي أن المراد سوق أسلوب الذم زيادة الترهيب من جهنم ، والذي أبصره أن هذا مقصد في كل أسلوب ذم فيها ، ويبقى لكل أسلوب مقصد خاص بسياقه كما حاولت .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ (الملك:٥،٦) .

أرأيت كيف قرن الذكر الحكيم الكافرين بالشياطين فيما أعد لهم من العذاب المقيم إذ كفروا بربهم ، الذي بيده الملك ، وظاهر أن التقديم في ﴿ **وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟** ... ﴾ للتخصيص ، فهو عذاب مختص بهم،وفي الاختصاص مزيد اهتمام بتعذيبهم ، ثم ترى هنا شيئًا خاصًا بتركيب سياق أسلوب الذم ﴿ **عَذَابُ جَهَنَّمَ** ﴾ هذه الإضافة ليست موجودة في المواطن الأخرى ، نعم جهنم لا تكون إلا عذابًا ، ولكن في إضافة العذاب إليها ، زيادة تهديد للكافرين ، ثم جاء أسلوب الذم مؤكدًا زيادة التهديد ، إذ المصير دال على

---

(١) نظم الدرر ١٤/٨ ، ١٥ .

عدم خلاصهم منها أصلاً أزلاً وأبدًا كما قال البقاعي[1] . وسبق الحديث في المخصوص المحذوف ، وتقديم المسند .

قال تعالى : ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ (النور:٥٧) .

هذا هو الموضع الوحيد في المواضع الأربعة عشر الذي جاء مقترنًا بلام جواب القسم المقدر ، وذلك لتلاؤمه مع السياق ، الذي يتحدث عن وعد الله المؤمنين باستخلافهم في الأرض ، والتمكين لدينهم ، وتبديله خوفهم أمنًا ، ولما كانت كثرة المشركين وقوتهم ، وإحاطتهم بالمؤمنين من كل جانب مثيرة بعض الشك وردت الأساليب كلها مؤكدة بالأقسام المحذوفة (ليستخلفنهم ـ ليمكنن ـ ليبدلنهم) ثم جاء توكيد آخر بالفحوى ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾ (النور:٥٧) فقد نفى بذلك فوتهم هربًا ؛ لذا قالوا : (وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيراً لهم إثر نفي فوتهم بالهرب في الأرض كل مهرب من الجزالة ما لا غاية وراءه، فلله در شأن التنزيل)[2] .

المهم أن اقتران أسلوب الذم هنا بلام جواب القسم المقدر جاء متلائمًا مع التراكيب في هذا السياق ، من أجل ذلك كان هذا الاقتران من خصائص تركيب أسلوب الذم وسياقه هنا ، ،كذلك التعبير بالمأوى والمصير يتلاءم مع السياق ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾ (النور:٥٧) أي مأواهم الغلبة ومصيرهم الذلة هذا في الدنيا ، وأشد منه في الآخرة ، ويمكن القول ـ بعد استكشاف السياق ـ **أن المقصد من سوق أسلوب الذم**

---

(١) نظم الدرر ٨/٧٠ ، ٧١ .
(٢) إرشاد العقل السليم ٦/٢٩٣ ، روح المعاني ١٨/٢٠٩ .



هو زيادة التأكيد على بشارة المؤمنين بالاستخلاف والتمكين والتأمين فوق زيادة تهديد الكافرين بذم فمأواهم ومصيرهم في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ (المجادلة:٨) .

الآية الكريمة في شأن اليهود عند الجمهور ، فحين كانوا يرون المؤمن يتناجون فيما بينهم ؛ إيهامًا له بأنهم يتآمرون عليه ، ثم إنهم يحيون الرسول بما لم يحيه الله به ، فيقولون (السام عليكم) وهذه جرأة ، وقباحة متناهية ، يتناسب معها أسلوب الذم ، وفوق جرأتهم على المؤمنين ، ثم على الرسول ﷺ ثم على الله كما وضح الآية ﴿ **وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ** ﴾ (المجادلة:٨) أي لاجترأوا أكثر ، ولازدادوا قبحًا ، لذا وقع في تركيب سياق أسلوب الذم ﴿ **حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا** ﴾ (المجادلة:٨) وليس هذا التركيب موجودًا في أي من السياقات الأخرى .

ثم اختص هذا الموضع بالفاء ، وهي فاء تفريع عند ابن عاشور[(١)] ، وهي سببية عند البقاعي[(٢)] ويمكن أن تكون الفاء الفصيحة : والتقدير إن كانت كافيتهم فبئس المصير ، وهذا يفيد زيادة تهكم بهم يتناسب مع سخريتهم من الله ورسوله والمؤمنين ، وإن كانت فاء السببية فكذلك أيضًا ، أي أن ذمها وقبحها بل جمعها للمذام متسبب عن كونها كافية اليهود عندما

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٨ .
(٢) نظم الدرر ٤٩٣/٧ .

يصلونها ، وفيه يزيدون جهنهم قبحًا ، وكل ذلك يتناسب وأوصافهم وجرائمهم ، لذا وقعت الفاء هنا ولم تقع في المواضع الأخرى ، ولعل المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة تهديد اليهود ، فوق زيادة التنفير من التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا** ﴾ (النساء:٩٧) ثم قال : ﴿ **إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ (النساء:٩٨-١٠٠) .

ذكرت الآيات كما ترى لتبصر موقع أسلوب الذم معي فقد جاء في سياق الحث على الفرار بدين الله ، فبدأ بالترهيب ، فرهب القاعدين عن الهجرة بسوء المآل ﴿ **ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ** ﴾ ، ثم صعد بعد ذلك بالكشف عن صور سوء المآل فذكر ما عند الموت من توبيخ الملائكة لهم ، ثم قفز قفزة سريعة لم يذكر فيها القبر إلى المآل في الحساب ﴿ **فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾ فهو ترهيب متصاعد كما ترى ، ثم زاد في الترهيب فذكر أسلوب الذم (وساءت) مصيرًا ، فجاء لمقصد زيادة الترهيب من عدم الفرار بدين الله ، ولأثر الأسلوب في السياق جاء ما بعده متأثرًا به فالمستثنون من المستضعفين الذين لا صلة لهم ، العفو عنهم ليس مؤكدًا ﴿ **فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ** ﴾ (النساء:٩٩) وهذا يساهم أيضًا في زيادة الترهيب ، ثم انتقل بعد هذا

الترهيب المتصاعد ، إلى الترغيب المتناحي بقوله : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا ... ﴾ .

وقد سبق البيان عن أن مصيراً تمييز للفاعل المحذوف وأن المخصوص بالذم محذوف ، مدلول عليه بما مضى ، وكل مزايا التركيب من الحذف والتقديم وأسلوب الذم تلهب من نبرة الترهيب من عدم الهجرة بدين الله عز وعلا ، ولعل في اصطفاء (ساء) على (بئس) هنا تناسبًا مع ما في السياق مما يدعو للعجب ﴿ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهو قيد يثير العجب ، إذ ما أعجب وما أقبح أن يظلم الإنسان نفسه ، فناسب القيد (ساء) .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء:١١٥).

كأني بالآية الكريمة تنادي على قوله تعالى فيما مضى من السياق ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء:٦٩) وهذا كان المقصود من سوق أسلوب المدح فيها زيادة الترغيب في طاعة الرسول ﷺ وهذه ضدها ، والظاهر أن المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة الترهيب من مشاقة الرسول ﷺ وقد ذكر في السياق سر قبح المآل (مشاقة الرسول ـ اتباع غير سبيل المؤمنين) وكأني بالثاني توكيد للأول ، لأن مشاقة الرسول ما هي إلا اتباع غير سبيل المؤمنين ، فكان عقابه أيضًا إمهاله بتزيين الطريق الفاسد له ، ثم نصله جهنم وساءت مصيراً ، ولعل في اصطفاء (ساء) هنا على (بئس) تناسبًا مع السياق ، وتلاؤمًا مع هذا القيد ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ فما عجب النكوص عن الحق بعد الاهتداء إليه ، وما أقبحها طريقة ، فناسب هذا القيد (ساء) لأنها تدل على الذم ، وتتضمن التعجب .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (الفتح:٤-٦) .

السياق كاشف عن نصر الله أولياءه في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالنصر والفتح ، وفي الآخرة بالجنة والنعيم ، وبعد أن ذكر الله أولياءه وحسن عاقبتهم أتبعهم ذكر أعدائه ، وقدم المنافقين زيادة في تقبيحهم ، فهم عند الله أقبح من المشركين فذكر الحق للجميع عقوبات متصاعدة ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أي الهلكة في الدنيا ، ردًّا على ظنهم السيئ في قتل محمد وأصحابه وإبادتهم بالكلية ، هذا في الدنيا ، ثم ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ثم ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ زيادة بغض وشدة بغض ، طردوا من رحمة الله ، ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ ثم جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد القرآن بيانه في تهديد المنافقين والمشركين وتطمين المؤمنين ، ومعلوم أن سورة الفتح نزلت قبل الفتح .

ولعل اصطفاء (ساء) على (بئس) هنا تلاؤمًا مع هذا القيد الذي تتفرد به سورة الفتح ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ (الفتح:٦) إذ ما أقبح تفكيرهم أن الرسول وصحبه سيهلكون بالكلية ، كيف وقد نصرهم من قبل ومن بعد نصرًا مؤزرًا ، فتناسب مصيرهم مع قبح تفكير ، إذ (ساء) تدل على الذم وتتضمن التعجب .

وقد ذكر البقاعي أن جملة الذم عطفت على جملة ذم محذوفة ، والتقدير : (فساءت معدًّا[1] وساءت مصيرًا) وهو وجه قوي متناسب مع ذكر غضب الله ولعنة المنافقين ، إذ حذفه يدل على أنه لا فرق زمني بين الإعداد والإساءة .

وإلى هنا انتهى الحديث عن الأسلوب (وبئس المصير) وما يقاربه ، وقد أبصرت فيه كيف كان لكل سياق خصوصية ، ولكل أسلوب ـ على تقاربه مع الآخر ـ مهمة بلاغية ليست لصنوه وأخيه ، وقد حاولت استخراج التلاؤم بين الأساليب وسياقاتها .

وقع ذم جهنم بهذا الأسلوب (بئس المهاد) أربع مرات ، اقترن ثلاث مرات بالواو ، ومرة واحدة بالفاء ، واقترن موضع واحد بلام جواب القسم ، ويمكن إجمال أمور هنا محل اتفاق بين المفسرين في هذا الأسلوب ، يستغنى بذكرها هنا عن ذكرها في بقية المواطن .

أولاً : اتفقوا على أن الأسلوب تهكمي (استعارة تهكمية ، وقد رجحت في دراسة أخرى أنه تشبيه تهكمي ، وذلك أن الطرفين موجودان حين تقدير المخصوص (وبئس المهاد جهنم) .

ثانيًا : اتفقوا على أن المخصوص بالذم محذوف .

ثالثًا : ذكروا أن الأسلوب ـ ما اقترن منه بالواو ـ اعتراض ، ومقصدهم أنه اعتراض تذييلي ، وهذا منهم دليل على ضرورة استنباطنا الغرض من سوق أسلوب الذم من السياق ، الذي وقع الأسلوب تأكيدًا له كما مضى .

---

(١) نظم الدرر ٧/١٩١ .

رابعًا : ذكر بعضهم أن الأسلوب استئناف لإنشاء الذم ، وعليه فالواو استئنافية وعلى السابق الواو واو الاعتراض ، وعلى أي حال الأسلوب على الطريقتين يفيد التوكيد .

خامسًا : تفرد ابن عاشور بالقول بأنه من باب عطف الإنشاء على الخبر[1] ، وسأتناول بحول الله كل أسلوب محاولاً كشف ارتباطه بالسياق ، واستنباط مقصد سيق له .

قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ** ﴾ (البقرة:٢٠٤-٢٠٦) .

الآيات في الأخنس بن شريق كما ذكر المفسرون ، والآيات فضحته (وهو ألد الخصام ، وقد جمع بين الإفساد والإهلاك ﴿ **لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ** ﴾ وقد عم فساده وإهلاكه ﴿ **ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ** ﴾ ثم ذكر القرآن كبره ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ** ﴾ (البقرة: ٢٠٦) وكلها جرائم بناها النظم القرآني على تناهيه فيها ، وبلوغه منها الحد الأقصى لذا اختص أسلوب الذم هنا بأمرين ، وقوع الأسلوب جواب قسم (ولبئس...) كما ذكر العلماء[2] تأكيد لتناهي عذابه في الذم أيضًا ، والأمر الثاني أن أسلوب الذم سيق بقوله تعالى ﴿ **فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُ** ﴾ (البقرة: ٢٠٦) بهذا الأسلوب البليغ ،

(١) انظر أنوار التنزيل وزادة عليه ٥١٤/١ ، ٦٠٧/١ ، ١١٦/٣ ، ١٨٧/٤ ، مفاتيح الغيب ١٨٨/٨ ، إرشاد العقل السليم ٢١٢/١ ، ١٠/٢ ، ١١ ، ١٦/٥ ، ٢٢٦/٧ ، روح المعاني ٩٦/٢ ، ٩٥/٣ ، ١٣٣/١٣ ، ٢١٤/٢٣ .
(٢) إرشاد العقل السليم ٢١٢/١ ، روح المعاني ٩٦/٢ .



فمثله لا تكفيه إلا جهنم ، وقد جاء أسلوب الذم على طريقة التناهي في الذم تناسبًا مع ما في السياق من تناهيه في القبح ، وقد جاء المهاد في هذا الموضع أيضًا تناسبًا مع السياق .

ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ** ﴾ (البقرة:٢٠٤) ألا ترى أن هذا التركيب يتظاهر على فضحه في كونه يظهر خلاف ما يبطن ، وأن في ذلك سخرية من الله واستهزاء به ، لذا ناسبه بناء الأسلوب على التهكم في العقاب .

وفي اقتران الأسلوب بلام جواب القسم مزيد تأكيد يتناسب وتناهيه في القبح ، وفي تقديم المسند تعجيل بالمساءة ، وهو الألصق بالسياق ، وفي حذف المسند إليه بعد تأخيره إلماع إلى تهويله ، وإنما جاء التهويل من أنه مهاد جامع لكل المذام ، والأصل في المهاد أن يكون للراحة ، فكأنه لا مهاد أصلاً إلا العذاب ولعل المقصد من سوق أسلوب الذم على هذا النحو تأكيد زيادة التهديد للمنافقين بالكشف عن سوء مآلهم . والأسلوب كله مبني على التوكيد حتى في موقعه تلاؤمًا مع تعديد قبائح هذا المنافق.

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ** ﴾ .

(آل عمران: ١٠-١٢)

الآية الأولى تهديد للكافرين ، والتي بعدها (كدأب ...) زيادة في التهديد ، لأن ذكر ما وقع في الدنيا دليل على وقوع أشد منه في الآخرة ،

فهي كأنها تأكيد للشيء بذكر الدليل عليه ، ثم جاء أسلوب الذم ناظرًا إلى الآية الأولى في بنائه على المبالغة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٠) ، ثم جاء بعد الآية موضع أسلوب الذم آية أخرى تؤكد على قدرة الله على تعذيب الكافرين ، دون تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا ، كأن هذه الآيات كلها وقعت توكيدًا للآية الأولى .

وقد ذكروا هنا أن أسلوب الذم إما يكون من تمام ما يقال ، أي ويقال لهم بئس المهاد ، أو استئناف لتهويل جهنم وتفظيع حال أهلها[1] ، ويمكن تأسيسًا على أقوال أهل العلم القول **بأن المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة تفظيع حال الكافرين في جهنم** ، وفي ذلك زجر لهم وتخويف .

وهو مقصد وارد على الاستئناف أو التمام ، وهو ليس ببعيد من السياق كما ترى ، لأن السياق مبني على إهانة الكافرين في الدنيا والآخرة بذكر تشبيه دأبهم بدأب قوم فرعون ، وبذكر هزيمتهم في غزوة بدر على قلة عدد المؤمنين وكثرة عددهم ، ولم يحتج هنا إلى ذكر اللام الواقعة في جواب القسم ، لأنه لم يسبق ما يدعوا إليها ، واكتفاء بسوق الدليل على وقوع تعذيبهم ﴿ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ (آل عمران: ١٢) ، وفي مجيء الأسلوب على التهكم تناسب مع ما يعتزون به من المال والولد ظنًّا منهم أن شيئًا مما ذكروه ، يمكن أن يدفع عنهم من عذاب الله شيئًا ، وتفكيرهم السفيه هذا فيه غفلة تدعو إلى التهكم بهم . وفي حذف المخصوص تهويل له ، جاء من الإلماع إلى تعينه كأنه أصبح من المشتهر المغني عن النص أن جهنم هي مهادهم. مع ما في الأسلوب من المقاصد العامة المذكورة في التمهيد .

---

(١) روح المعاني ٣/٩٥ .

قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (الرعد:١٨) .

جاء أسلوب الذم تعقيبًا على جزاء الكافرين في مقابل جزاء المحسنين، وقد ورد في السياق أن المحسنين لهم عقبى الدار ، ومدح عقباهم فقال : ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد:٢٤) وقد سبق أسلوب الذم بما يكشف عن عجز الآلهة ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ (الرعد:١٤) وفي بناء الأسلوب في الآية الكريمة تهكم بهم ، إذ قال مستثنيًا ﴿ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ﴾ (الرعد:١٤) لذا جاء أسلوب ذم عاقبتهم متهكمًا بهم على طريقة السياق في التهكم بهم، واختص أسلوب الذم هنا بأن سبق بقوله : ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ (الرعد:١٨) ؛ لذا قال البقاعي : « ولما كان المأوى إنما يأوي إليه صاحبه للراحة فيه بالاتكاء ، على فرش ونحوه قال معبراً بمجمع المذام ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (الرعد:١٨)»[1] .

ومعنى هذا أنه تهكم على تهكم ، ولعل المقصود من سوق أسلوب الذم هنا زيادة تهديد الكافرين ، وتخويفهم ، والمخصوص بالذم حذف إلماعًا إلى تعينه والشيء إذا وصل إلى حد اشتهار ـ تعينه بأحد بحيث يغني ذلك عن ذكره ، كان أشد التهديد وألصق بالزجر .

قال تعالى : ﴿ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ (ص:٥٣-٥٥) ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (ص:٥٦) .

---

(١) نظم الدرر ٤/١٤٤ .

أنت ترى التهديد هنا متصاعداً . مقابل الترغيب المتصاعد أيضًا ، والأسلوب مليء بالتوكيد ﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ (ص:٥٥) ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا ﴾ (ص:٥٦) ﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ (ص:٥٥) فاقتضى هذا التوكيد الإتيان بما هو متناه في الذم ، تصويرًا لما هو متناه في الشر وقد ذكروا أن الفاء لترتيب الأخبار وتسببه على ما قبله[1] ، وهذا يعني أن الفاء للسببية ، وأن دخولهم جهنم جعلها أجمع للمذام ، وهذا تنبيه على شدة قبح أهلها ، واقتران الأسلوب بالفاء على هذا النحو لا نظير له في الأساليب السابقة على هذا الأسلوب ، والمخصوص بالذم محذوف إلماعًا إلى تعينه وهذا ألصق بمقام التهديد والوعيد ، والمقصد من سوق أسلوب الذم زيادة التهديد والوعيد ، وفي الأسلوب تهكم بهم ؛ إمعانًا في تهديدهم ووعيدهم .

ورد ذم جهنم بهذا الأسلوب (بئس القرار) مرتين في الذكر الحكيم مرة بالواو وأخرى بالفاء قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا ۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴾ .

(إبراهيم:٢٨، ٢٩)

السياق هنا في أئمة الكفر ، وكيف أهلكوا قومهم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فقد أحلوهم دار البوار ، وأما في الآخرة فقد أحلوهم جهنم ، فالأسلوب متصاعد ، وأسلوب الذم هو الذروة ، وقد وقع بالواو ، ولابن عاشور فيها تأويلان أنها واو الحال ، أو أنها من عطف الإنشاء على الخبر[2] ، وليس الأخير بمرتضى إلا بتقدير محذوف ، بتقدير ويقال لهم فيها بئس القرار ، أو تكون الواو للاستئناف .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٥/٢٣ .

(٢) المرجع السابق ٢٣٠/١٣ .

والمخصوص بالذم محذوف[1] . وقد جاء الأسلوب مضيفًا **زيادة دلالة على استمرار حلولهم في جهنم** ، وقد جاءت التراكيب على نمط الماضي دفعًا للمجاز عنها ، وفيه من التأكيد ما يناسب شدة الوعيد ، وفي حذف المخصوص بعد تأخيره زيادة تهويل بالإلماع إلى تعينه واشتهاره ، وأنه قد جمع كل المذام ، وإذا ما كان المكان جامعًا للمذام ، فما أسوأه مقرًّا وما أسوأ القارين فيه ، ويمكن أن يقال في أسلوب الذم زيادة تقبيح للكافرين بذم مستقرم ومآلهم ، وذلك جزاء تبديلهم نعمة الله كفرًا .

قال تعالى : ﴿ **وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ** ﴾ (ص:٥٨-٦٠) .

اقترن الأسلوب هنا بالفاء على طريقة سياقة ﴿ **فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ** ﴾ (ص:٥٦) والفاء هناك كالفاء هنا لترتيب الأخبار والتسبيب ، وقد ذكر العلماء أن هذا من كلام الأتباع في تخاصمهم ، **وأنهم قصدوا بالذم المذكور تغليظ جناية الرؤساء عليهم**[2] وهذا تصريح من الأئمة بالمقصد من أسلوب الذم ، فليس الذم عندهم غرضًا تتظاهر التراكيب عليه ، وقد ذكر ابن عاشور ، أن الأسلوب ذم لإقامتهم في جهنم تشنيعًا عليهم فيما تسببوا لأنفسهم فيه[3] وعلى أي حال فالأسلوب لا يمنع هذا ، وكلاهما مقصد لأسلوب الذم ، والمخصوص بالذم هنا محذوف تهويلاً له زيادة في التغليظ ، وتأكيدًا

---

(١) البحر المحيط ٤٢٤/٥ ، أنوار التنزيل ١٣٥/٣ ، إرشاد العقل السليم ٤٥/٥ ، روح المعاني ٢١٩/١٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٢٧/٧ ، روح المعاني ٢١٧/٢٣ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩٠/٢٣ .

للتشنيع لأن في حذفه إلماعًا إلى تعينه ، فمقرهم أصبح جامعًا للمذام ، واشتهاره بذلك أصبح مغنيًا عن النص عليه .

ورد ذم جهنم بهذا الأسلوب ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (النحل:٢٩) ثلاث مرات في الذكر الحكيم اقترنت كلها بالفاء ، واقترن موضع منها بلام جواب القسم .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (النحل:٢٧-٢٩) .

جاء أسلوب الذم هنا مقترنًا بلام جواب القسم على طريقة التقابل مع المتقين ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (النحل:٣٠) ، والسياق من أول السورة كاشف عن لدد الكافرين في الخصومة وتكبرهم على الحق ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (النحل:٤) وكذلك عبر ربنا أن لهم شركاء كانوا يشاقون فيهم .

وقد جاءت جملة الذم بعد أمرين ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ (النحل: ٢٩) وهذا الأمر للإهانة والإذلال ، ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ (النحل: ٢٩) إمعان في الإهانة ، إذ هي إهانة على وجه الخلود ثم جاءت جملة الذم على سبيل التذييل ، واقترنت باللام للتوكيد ؛ لذا قال الآلوسي « والفاء عاطفة ، واللام جيء بها للتأكيد اعتناء بالذم لما أن القوم ضالون مضلون كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ ﴾ (النحل:٢٥) وللتأكيد اعتناء بالمدح جيء باللام أيضًا فيما بعد من قوله سبحانه ﴿ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ

ﱡﭐ ٱلۡمُتَّقِينَ ﱠ (النحل:٣٠)» أي أن التوكيد بلام جواب القسم ناسب ما قبله ولاءم ما بعده ، ثم قفز الآلوسي قفزة علل فيها عدم مجيء اللام في الموضعين الآخرين بأن ذلك راجح للسياق حيث قال بعد النص السابق «وكأنه لعدم هذا المقتضى في آيتي الزمر والمؤمن لم يؤت باللام»[1].

وقد لحظ ابن عاشور اصطفاء التعبير بـ(مثوى) على التعبير بـ(دار) كما جاء في مقابله فقال : (ولم يعبر عن جهنم بالدار كما عبر عن الجنة فيما يأتي بقوله تعالى : ﴿ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (النحل:٣٠) تحقيراً لهم ، وأنتم ليسوا في جهنم بمنزلة أهل الدار ، بل هم متراصون في النار ، وهم في مثوى أي في محل ثواء»[2] .

وفي إضافة الفاعل (مثوى) إلى المتكبرين تسجيل عليهم سبب تعذيبهم ، لذا قالوا : (وذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعليته لثوائهم فيها)[3] ، وقد نفذ البقاعي أيضًا إلى تفسير فروق التراكيب من السياق فقال : (ولما كان هذا المقام للمشاققة ، وكان أمرها زائد القباحة ، كان هذا الدخول أقبح دخول ، وكان سببًا لأن يقال : (فلبئس) بالأداة الجامعة لمجامع الذم (مثوى المتكبرين) على وجه التأكيد ، وبيان الوصف الذي استحقوا به ذلك ، لتقدم كذبهم في قولهم ﴿ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ ﴾ تعريفًا بأنهم جديرون ـ لغاية ما لهم من البلادة ـ أن يستحسنوا النار ، كما كذبوا مع العلم التام بأنه لا يروج في ذلك اليوم كذب)[4] والمخصوص بالذم محذوف تهويلاً له ، ويمكن من كل ما مضى أن يقال المقصد من

---

(١) روح المعاني ١٤/١٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٤/١٤٠ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/١٠٩ .

(٤) نظم الدرر ٤/٢٦٣ .

سوق أسلوب الذم زيادة التهديد والوعيد ، على طريقة مقابلة في زيادة الترغيب في التقوى .

قال تعالى : ﴿ **وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ (الزمر: ٧١، ٧٢) .

جاء أسلوب الذم مقترنًا بالفاء على طريقة مقابلة ﴿ **فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ** ﴾ (الزمر: ٧٤) ولم يقترن هنا بلام القسم مثل سورة النحل ، لأنه هنا حديث لهم بعد دخولهم النار ، مقابل حديث المؤمنين بعد دخولهم الجنة ، والمقصد من إيراد أسلوب الذم هنا زيادة إهانتهم جريًا على لاحب السياق المليء بالتوبيخ ﴿ **أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ** ﴾ (الزمر: ٧١) ومن قبل لم يوجد حرف العطف ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ** ﴾ (الزمر: ٧١) بدون الواو ؛ إظهار لتمام الاستعداد لإهانتهم وتعذيبهم ، وفي التعبير بالمتكبرين إشعار بعلية عذابهم ، والمخصوص بالذم محذوف دل عليه ما قبله ، للتهويل الآتي من الإشعار بتعينه .

ويمكن أن يقصد أيضًا بسوق أسلوب الذم زيادة الترهيب من التكبر على آيات الله .

قال تعالى : ﴿ **ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ** ﴾

(غافر: ٧٥، ٧٦) .

أسلوب الذم جاء هنا أيضًا إمعانًا في إهانة الكافرين ، وهو قد وقع في سياق قول الله ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴾ (غافر: ٧١) وفيه من الإذلال والإهانة ما ترى ، وقد تكلم العلماء هنا عن تناسب عجز الآية مع صدورها ، حيث كان المنتظر أن يكون التعبير فبئس مدخل المتكبرين ـ تناسبًا مع الأمر (ادخلوا) فأجابوا عن ذلك بقولهم : (والتعبير عن مدخلهم بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود) [١] أي أن هذا القيد (خالدين فيها) له أثر ظاهر في اصطفاء الأسلوب .

وقد كشف البقاعي عن هذا التناسب بل تناسب الأسلوب مع ما سبق بقوله : (ولما كانت نهاية في البشاعة والخزي والسوء وكان دخولهم فيها مقرونًا بخلودهم سببًا لنحو أن يقال فهي مثواكم ، تسبب عنه قوله (فبئس مثوى) دون أن يقال : (مدخل المتكبرين) أي موضع إقامتهم المحكومة بلزومهم إياه لكونهم تعاطوا ما ليس لهم ، ولا ينبغي أن يكون إلا الله ... ولم يؤكد جملة (بئس) هنا ، لأن مقاولتهم هذه بنيت على تجدد علمهم في الآخرة بأحوال النار ، وأحوال ما سببها ، والتأكيد يكون للمنكر ومن في عداه وحال كل منهما مناف للعلم ، وزاد ذلك حسنًا أن أصل الكلام مع الأعلم للسر الذي تقدم فبعدًا جدًّا من التأكيد) [٢] .

ويمكن أن يكون المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة إظهار إهانتهم ، إذ قد جاء الأسلوب نهاية الحديث عن عاقبة الكافرين . وفي إظهار إهانتهم زجر لهم وترهيب من الكفر ، والمخصوص بالذم محذوف سبق الحديث عنه .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٧٩/٧ ، التحرير والتنوير ٢٠٧/٢٤ .
(٢) نظم الدرر ٥٣٩/٦ .

قال تعالى : ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

(آل عمران: ١٥١)

هذا هو الموضع الوحيد في الذكر الحكيم الذي ورد فيه فاعل (بئس) مثوى مضافًا إلى الظالمين ، والمراد بالظالمين هنا الكافرون ، غير أنه ذكرهم بعنوان الظلم ، دلالة على ظلمهم البين ، المذكور بهذا القيد ﴿ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾ (آل عمران: ١٥١) وهو أشد الظلم ، وكان التعبير للضمير (وبئس مثواهم) غير أنه وضع الظاهر موضع الضمير « للتغليظ والتعليل ، والإشعار بأنهم في إشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه »[١] ، أو أنه وضع الظاهر موضع الضمير « للتعميم وتعليق الحكم بالوصف »[٢] .

والتغليظ والتعميم ليسا بعيدين من نمط التركيب ألا تراه أخبر بأن النار مثواهم ، بعد ما أخبر أنها مأواهم ، وهو ترتيب متصاعد ، لأن التعبير بالمثوى يؤذن بالخلود ، ولا كذلك المأوى ، لأن الإقامة مأخوذة في المثوى دون المأوى كما ذكروا[٣]، والواو يمكن أن يكون واو الاعتراض أو مستأنفة لتأكيد المعنى السابق ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره : مثواهم ، وفي حذفه تهويل له ، ويمكن أن يكون المقصد من سوق أسلوب الذم في هذا الموضع زيادة تثبيت المؤمنين بالكشف عن ضعف الكافرين في الدنيا

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢/٩٧ ، روح المعاني ٤/٨٨ .
(٢) نظم الدرر ٢/١٦٦ .
(٣) إرشاد العقل السليم ٢/٩٧ ، روح المعاني ٤/٨٨ .

﴿ سَنُلۡقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ ﴾ (آل عمران: ١٥١) وفـي الآخـرة ﴿ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥١) لأن موقع الآية يرشد إلى هذا ألا تراه قال قبل الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٩، ١٥٠) وقال بعد الآية محل الشاهد ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ ﴾ (آل عمران: ١٥٢) .

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِى ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ (الكهف: ٢٩) .

هذا هو الموضع الوحيد الذي جـاءت فيه (بئس) و(ساء) في سياق واحد ، ومن لطف التناسب ، أنه جاء في مقابل الحديث عن ثواب المؤمنين ، وهو الموضع الوحيد أيضًا الذي جاءت فيه (نعم) و(حسن) في سياق واحد ، وهذان الموضعان من اختصاص سورة الكهف .

والآية الكريمة تتظاهر على التغليظ في عذاب الكافرين ﴿ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِى ٱلۡوُجُوهَ ﴾ (الكهف: ٢٩) ثم جاء بعد ذلك الأسلوب التهكمي وهو مؤسس على المعنى السابق ، إذ الاستغاثة من إحاطة النار بهم ، واستغاثتهم حقيقة ، وإغاثتهم مجاز تهكمي ، ثم انظر الإمعان في تغليظ العذاب عليهم ﴿ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِى ٱلۡوُجُوهَ ﴾ (الكهف: ٢٩) هذه حرارته وعذابه ما إن يقترب من الوجه إلا ويشويه شيًّا ، فماذا إذا دخل الجوف ، ثم جاء أسلوب الذم بعد ذلك مختصًّا بالماء ، فماء بهذه الأوصاف جامع لكل المذام ، فتناسب أن يأتي هنا بـ(بئس) التي تدل على التناهي في الذم ، ثم صعد القرآن بيانه بعد ذلك من ذم الجزء (الماء)

لشديد الحاجة إليه - إلى ذم الكل (وساءت مرتفقًا) ، ومعلوم أن (ساء) تدل على الذم وتتضمن التعجب ، ومكان يحوي مثل هذا الماء ما أشد قباحته لقباحة ساكنيه ، وفي التعبير بالمرتفق تهكم « لأن شأن المرتفق أن يكون مكان استراحة ، فإطلاق ذلك على النار تهكم »[1] وهذا التهكم يتناسب مع التهكم السابق ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ ﴾ (الكهف:٢٩) ومرتفقًا تمييز ، وفاعل (ساء) مفسر بما بعده والتقدير : وساء المرتفق مرتفعًا مرتفقهم ، وهو متناسب مع التغليظ ، وحذف المخصوص أيضًا بعد تأخيره يتناسب ومقام التهويل وسياق التفظيع ، ويمكن أن يكون المقصد من سوق أسلوبي الذم هنا زيادة التغليظ والتشنيع لعذاب الكافرين .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان:٦٥،٦٦).

الآيات الكريمات تحكي أوصاف عباد الرحمن ، وهاتان الآيتان تحكيان دعاءهما وقد عللوا لطلبهم من الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم بتعليلين ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان:٦٥) ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٦) وقد وقعت جملة الذم تعليلا ثانيا مؤكداً لتعليهم الأول ؛ لذا وقعت من دون عطف ، لأنها توكيد معنوي للتعليل الأول ، وقد ذكروا أن في ترك العاطف إشارة إلى أن كلا منهما مستقل بالعلية[2] .

والراجح عند العلماء أن (ساء) هنا جارية مجرى (وبئس) [3] ومستقراًّ تمييز والفاعل مفسر بما بعده ، والمخصوص بالذم محذوف تهويلاً له ؛

---

(١) زادة على البيضاوي ٢٥٩/٣ ، التحرير والتنوير ٣٠٩/١٥ .

(٢) روح المعاني ٤٥/١٩ .

(٣) أنوار التنزيل ٤٦١/٣ وزادة عليه ، البحر المحيط ٥١٣/٦ ، إرشاد العقل السليم ٢٢٩/٦ ، روح المعاني ٤٥/١٩ ، التحرير والتنوير ٧١/١٩ .

تناسبًا مع ما ذكروه من أن عذابها غرام ، وهذا ما فعل البقاعي يلمح التناسب بين أسلوب الذم والسياق حيث قال : (ولما ثبت لها هذا الوصف أنتج قوله : (إنها ساءت) أي تناهت هي في كل ما يحصل منه سوء ، وهي في معنى (بئست) في جميع المذام) [1] ومن لطيف المناسبة ، وجميل رحمة الله بأوليائه أن أجابهم الله - عز وعلا - بما طلبوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان:٧٥،٧٦) .

والظاهر أن المقصود من سوق أسلوب الذم زيادة إظهار الاستجارة بالله من عذاب جهنم .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ (هود:٩٦-٩٩) .

التركيبان اللذان ورد فيهما أسلوب الذم من خصائص السورة الكريمة ، وقد ذكرا تأسيسًا على حال فرعون مع قومه في الدنيا ، إذ كان متبعًا وكان قومه متبعين ؛ لذا كان إمام قومه في العذاب في الآخرة ، كما كان إمامهم في الضلال في الدنيا .

وقد ذكروا أن الواو للحال والجملة (أسلوب الذم) حالية [2] في التركيب الأول (وبئس الورد المورود) وقد تناسب العجز مع الصدر (فأوردهم -

---

(١) نظم الدرر ٣٣٦/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥٧/١٢ .

بئس المورد...) ولما لم يذكر هذا التركيب ـ يقدم قومه ... فأوردهم في أي موضع آخر من قصة موسى عليه السلام في الذكر الحكيم ، لم يرد أسلوب الذم أيضًا في غير هذا الموضع .

وقد اختلف العلماء هنا في فاعل (بئس) وفي المخصوص بالذم ، فمنهم من رأى أن (الورد) هو الفاعل ، ومنهم من رأى أن الفاعل مضاف محذوف ، والتقدير بئس مكان الورد ، والذين قالوا هذا قدروا المخصوص محذوفًا (النار) ، وأصل التركيب في ذلك (وبئس مكان الورد المورود النار) ، وإنما قدروا الفاعل مضافًا محذوفًا ليحصل التصادق بين فاعل (بئس) والمخصوص .

ومنهم من يجعل الورد فاعل (بئس) ويفسره بالجمع الوارد ، ويجعل (المورود) صفة لهذا الجمع ، والمخصوص بالذم ضميرهم المحذوف ، أي : بئس القوم المورود بهم هم ، فيكون الأسلوب ذمًّا للواردين لا لموضع الورود ، والمورود صفة لفاعل (بئس) ، وقد خالف في جواز وصف فاعل نعم وبئس ابن السراج والفارسي[1] .

وهذا من ثراء التعبير القرآني ، ولعله أورد الأسلوب كذلك حتى يمكن تأويله على هذين الوجهين ، فيكون الذم للوارد وللمورود فيه ، وكلاهما مذموم .

والأسلوب مليء بالتهكم ، ففي التعبير عن النار بالورد « استعارة تهكمية حيث شبهت النار في النفس بالماء على سبيل التهكم ، وجعل إثبات الإيراد لها تخيلا[2] لأن الورد الذي يوردونه النار ، والورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، وفي النار تقطع الأكباد .

---

(١) انظر الكشاف ٤٢٦/١٩٢، البحر المحيط ٢٥٩/٥، إرشاد العقل السليم ٢٣٨/٤، روح المعاني ١٣٤/١٢، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ٣٤٣/١٠ .

(٢) أنوار التنزيل وحاشية الشيخ زادة عليه ٦٤/٣ .

وقد ذكر البقاعي ـ رحمه الله ـ المناسبة مجريًا الكلام على ذم الوارد فقال : « ولما كان التقدير : فبئس الوارد عطف عليه بيان الفعل والمفعول ، فقال (وبئس الورد المورود) كما كان البحر إذن ورده أقبح ورد ورده إنسان ، لأن الورد يراد لتسكين العطش ، وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك »[1] .

ولعل **المقصد من سوق أسلوب الذم هنا زيادة تفظيع وتقبيح عقاب فرعون وقومه في الآخرة** .

ثم أتبع أسلوب الذم بأسلوب آخر ﴿ **وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ** ﴾ وقد جاءت جملة الذم هنا مستأنفة ـ كما ذكر ابن عاشور ـ لإنشاء ذم اللعنة[2] ، وقد ذكروا أن بئس الرفد المرفود ، معناه : بئس العون المعان ، والذين قالوا هذا ردوا القول بأن معنى الرفد العطاء ، على أية حال فالمراد من المعنيين (المعان ـ العطية) تفسير اللعنة في قوله تعالى : ﴿ **وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً** ﴾ (هود:٦٠) ، وتسميتها عونا من باب الاستعارة التهكمية ، وأما كونها معانًا ، فلأنها أرفدت في الآخرة بلعنة أخرى لتكونا هاديتين إلى صراط الجحيم[3] .

وقد تأولها البقاعي بالتبع والمتبوع والعون والمعان في قوله : « التبع المتبوع والعون المعان ، فإن اللعنة تابعة لعذابهم في الدنيا ، ومتبوعة باللعنة في الآخرة ، والعذاب رفد لها ، وهي رفد له ، ومادة (رفد) تدور على التبع ، أو يكون المراد أن لعنهم لا يزال مترادفًا تابعًا بعضه لبعض ، فكل لعنة تابعة لشيء من الخزي »[4] .

---

(١) نظم الدرر للبقاعي .
(٢) التحرير والتنوير ١٥٧/١٢ .
(٣) انظر أنوار التنزيل وزادة عليه ٦٤/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٣٨/٤ ، روح المعاني ١٣٥/١٢ .
(٤) نظم الدرر ٥٧٤/٣ .

ومعنى كلامه رحمه الله ـ أن لعنهم متتابع ، وهذا أشد لعذابهم وأشفى لقلوب المؤمنين ، والفاعل (الرفد) والمرفود صفة ، والمخصوص بالذم محذوف « إيجازًا ليكون الذم متوجهًا لإحدى اللعنتين ، لا على التعيين لأن كلتيهما ببئس ... ووصف الرفد بالمرفود ، لأن كلتا اللعنتين مقصودة بالأخرى ، فشبهت كل واحدة بمن أعطى عطاء فهي مرفودة ، وإنما أجرى المرفود على التذكير باعتبار أنه أطلق عليه رفد »[(١)] .

وهذا الإعراب على رأي من جوز وصف فاعل (بئس) ، وعلى رأي من لم يجوز ذلك يكون المرفود هو المخصوص بالذم ، وعلى أية حال فالذم متوجه للعنتين ، والمراد ذم التابع والمتبوع ، والمقصد من أسلوب الذم زيادة تفظيع حال فرعون وقومه ؛ لذا قال الآلوسي : « والآية ظاهرة في سوء حال فرعون يوم القيامة ، لأنه إذا كان حال الأتباع ما قص الله ـ سبحانه ـ فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم في هذا الضلال البعيد »[(٢)] .

والحمد لله رب العالمين ، ولا يزال الأسلوب بكرًا ، كلما حاولت الاقتراب منه ، والتنعيم بنوره ، هذا شأن كلام الله القديم لا تبلى جدته .

(١) التحرير والتنوير ١٥٧/١٢ .
(٢) روح المعاني ١٣٥/١٢ .

الخاتمة

بعد هذه السياحة في كتاب الله ، والإبحار بأسلوب المدح والذم فيه ظهر لي كفلق الصبح أن سوق أسلوب المدح والذم في الذكر الحكيم ، ليس مقصدًا تسعى التراكيب إليه من أجل المدح أو الذم ، وإنما استخدم هذا الأسلوب وسيلة لمقاصد أخرى ، فقد أبصرناه ذروة تصعيد القرآن بيانه ، في نفي الشك عن الصدفة المبدأة ، كما رأيناه مذكورًا لقصد إظهار تمام انقياد المؤمنين لأمر الله ، كما أبصرناه مسوقًا للتحريض على امتثال أمر الله ، والحث على المبادرة لحسن الامتثال . وأغراضًا أخرى كثيرة تنوعت بتنوع السياقات .

كما أيقنا أن السياق ذو أثر بالغ في تنوع التراكيب وتقاربها ، وتحديد المقصد من أسلوب الذم أو المدح ، لابد معه من إبصار السياق ، لأن كل أسلوب فيه خصائص سياقه ، وسيما جريان أسلوبه .

بصفة عامة أبصرنا أن أسلوب المدح يساق في الطاعات والترغيب فيها، وأسلوب الذم يساق في الترهيب من المعاصي .

كما أبصرنا أن مقامات وسياقات (نعم) غير مقامات وسياقات (حسن) كذلك مقام (ساء) غير مقام (بئس) غير مقام (كبر) وغير ذلك كثير مما حاولت ذكره في تضاعيف البحث .

وبعد ، فهذا كل الوسع وكل الجهد بذلته في محاولة فقه هذا الأسلوب ومراميه متخذًا توفيق الله معينا ، فإن صح لي فيه قول ، فذاك عطاء

لا يوازن ، وذلك فضل من الله لا يقـادر قـدره ، وإن كانـت الأخـرى فمـن عجزي ومن تقصيري ، وحسـبي أنـني بـذلت وسـعي ، واجتهـدت طـاقتي وخرج عملي علـى صـورتي ، وإنـي أعـوذ بربـي أن أتعمـد القـول في كـلامه بما لا أعلم ، أو أجترئ على أن أخط بقلمي في كتابه ما لا أستند فيه على أقوال أهل العلم فأولئك هـم السـادة والهـداة في فهـم بيانـه ـ عـز وعلا ـ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ـ وصلى الله على سيدنا محمـد وعلى آله وصحبه وأمته .

المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، مصطفى الحلبي ، ١٣٩٨ هـ .

٢- أدب الكاتب لابن قتيبة ، تحقيق علي قاعود ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٨م .

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ، بيروت بدون تاريخ .

٤- أسرار العربية لابن الأنباري ، محمد بهجة البيطار ، مطبعة الترقي دمشق ، ١٣٧٧هـ.

٥- أساليب بلاغية دكتور ، أحمد مطلوب ، الكويت ، ١٩٨٠م .

٦- الإشارات والتنبيهات لمحمد بن علي الجرجاني ، تحقيق دكتور عبد القادر حسين ، نهضة مصر .

٧- الأطول للعصام ، المطبعة السلطانية ، ١٢٨٤هـ .

٨- إملاء ما من به الرحمن في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري بهامش الفتوحات الإلهية ، عيسى الحلبي .

٩- الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، ١٤٠٧هـ .

١٠- أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي بهامش حاشية زادة تركيا بدون تاريخ .

١١- أوضح المسالك لابن هشام ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت.

١٢- الإيضاح للخطيب القزويني بهامش شروح التلخيص ، مطبعة السعادة ، ١٣٤٢هـ .

١٣- البحر المحيط لأبي حيان ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٨هـ .

١٤- البلاغة فنونها وأفنانها دكتور فضل حسين عباس ، دار الفرقان الأردن ، ١٤٠٩هـ.

١٥- البلاغة الاصطلاحية ، دكتور عبده عبد العزيز قلقيلة ، دار الفكر ، ١٤١١هـ .

١٦- البيان في روائع القرآن ، دكتور تمام حسان ، عالم الكتب .

١٧- التبيان للطيبي ، تحقيق دكتور هادي عطية مطر الهلالي ، عالم الكتب ، ١٤٠٧هـ .

١٨- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، الدار التونيسية ، ١٩٨٤م .

١٩- التسهيل لابن مالك ، تحقيق عبد الرحمن السيد ، ومحمد المختون ، دار هجر ، ١٤١٠هـ.

٢٠- تلخيص المفتاح للخطيب القزويني أعلى مختصر السعد ، مصطفى الحلبي .

٢١- جواهر البلاغة للهاشمي ، دار الكتب العلمية الطبعة السادسة .

٢٢- حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ، تركيا بدون تاريخ .

٢٣- حاشية عبد الحكيم على المطول أعلى فيض الفتاح ، مطبعة والدة عباس الأول ، ١٩٠٧م .

٢٤- حاشية الدسوقي على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ، مطبعة السعادة .

٢٥- خلاصة المعاني للحسن بن عثمان المفتي ، تحقيق دكتور عبد القادر حسين .

٢٦- دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ، دار الحديث .

٢٧- دلالات التراكيب دراسة بلاغية دكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، ط. ثانية ١٤٠٨هـ .

٢٨- روح المعاني للآلوسي ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٨٥م .

٢٩- شرح الكافية للرضي ، تحقيق يوسف حسن عمر ، جامعة قار يونس ، ليبيا ، ١٩٧٨م .



٣٠- شرح الأشموني ، عيسى الحلبي .
٣١- الصحاح للجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا ، بيروت ، ١٩٥٦م .
٣٢- الطراز المتضمن لعلوم البلاغة وحقائق الإعجاز للعلوي ، دار الكتب العلمية .
٣٣- عدة السالك بهامش أوضح المسالك ، للشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية بيروت .
٣٤- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، ١٣٤٢هـ .
٣٥- علوم البلاغة للمراغي ، دار الكتب العلمية ، ثالثة ، ١٩٩٣م .
٣٦- علم المعاني ، دكتور عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٥م .
٣٧- فتح القدير للإمام الشوكاني ، دار المعرفة بدون تاريخ .
٣٨- الفتوحات الإلهية للشيخ الجمل ، عيسى الحلبي .
٣٩- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، دكتور رجاء عيد ، منشأة المعارف ، ط. ثانية .
٤٠- فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح للخطيب الشربيني ، مدرسة والدة عباس الأول ١٩٠٧م .
٤١- الكتاب لسيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط . ثالثة مكتبة الخانجي ، ١٤٠٨هـ .
٤٢- الكشاف للزمخشري ، مصطفى الحلبي ، ١٣٩٢هـ .
٤٣- لسان العرب لابن منظور ، دار المعارف .
٤٤- لطائف المعاني في ضوء النظم القرآني ، دكتور عبد الله هنداوي ، مطبعة الأمانة ، ١٤٠٧هـ .
٤٥- اللغة العربية معناها ومبناها ، دكتور تمام حسان ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٩م.
٤٦- مختار الصحاح ، تقديم دكتور عبد الفتاح البركاوي ، دار المنار .
٤٧- مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني ، مصطفى الحلبي .

٤٨- المصباح لبدر الدين بن مالك ، حسني عبد الجليل ، مكتبة الآداب بدون تاريخ.

٤٩- المصباح المنير للفيومي ، المكتبة العلمية .

٥٠- المطول ، تركيا بدون تاريخ .

٥١- معاني التراكيب ، دكتور عبد الفتاح لاشين ، المطبعة الإسلامية الحديثة .

٥٢- المعاني في ضوء أساليب القرآن ، دكتور عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ١٩٧٧م .

٥٣- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية القاهرة .

٥٤- مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الشام للتراث .

٥٥- مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، دار الفكر بيروت .

٥٦- المفتاح للسكاكي ، تحقيق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤٠٣هـ.

٥٧- المفردات للراغب الأصفهاني ، تحقيق سيد كيلاني ، الحلبي ، ١٣٨١هـ.

٥٨- مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل .

٥٩- من أساليب القرآن ، دكتور إبراهيم السامرائي ، دار الفرقان ، الأردن ، ١٩٨٣م.

٦٠- من بلاغة النظم القرآني ، دكتور عبد العزيز عرفة ، عالم الكتب ، ١٩٨٤م .

٦١- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ، مطبعة السعادة .

٦٢- النحو الوافي ، دكتور عباس حسن ، دار المعارف ، ط. العاشرة .

٦٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١٥هـ .

٦٤- همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي ، الكليات الأزهرية ، ١٣٢٧هـ .

الفهرس

الفصل الثاني
(من أسرار أسلوب الذم في الذكر الحكيم)
(٧٣-١٦٨)